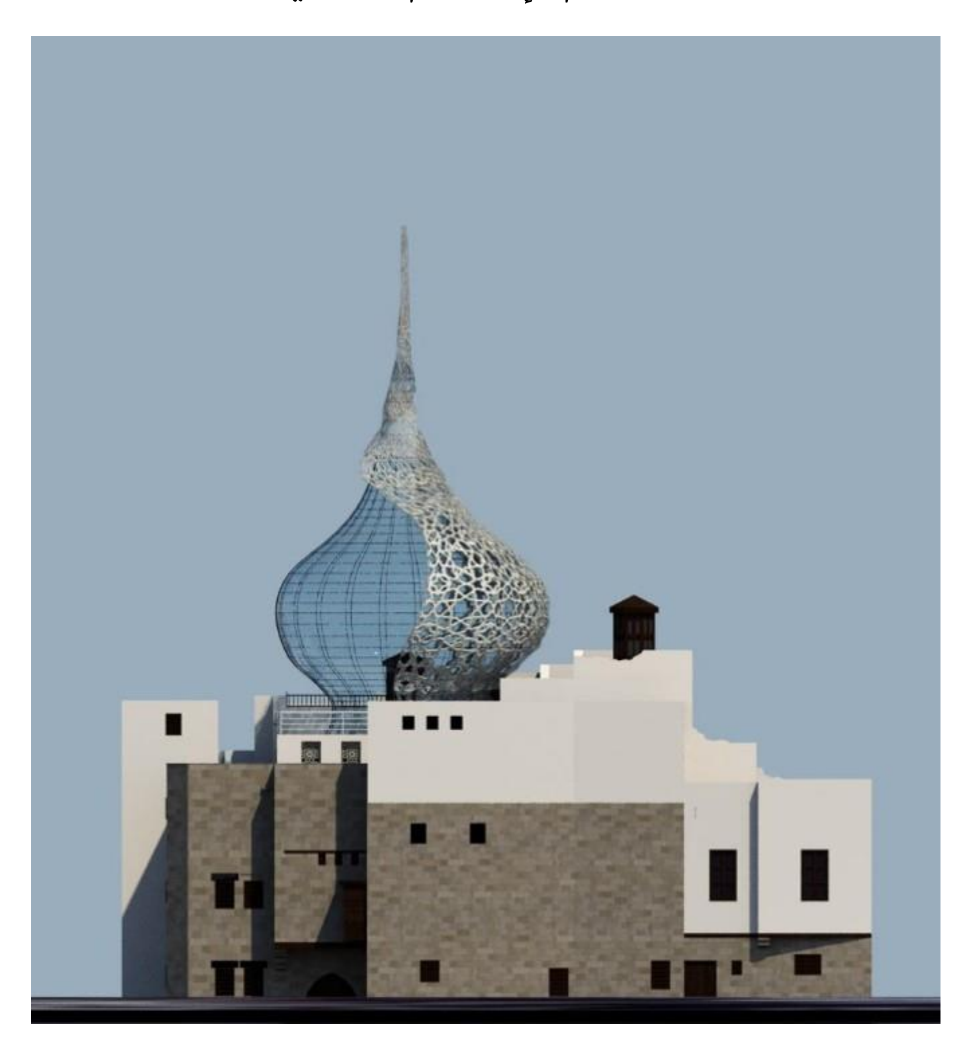
زينب خاتون

قصة إعادة تصميم وإستخدام منزل زينب خاتون



أ.د/ هشام جريشـة

شرف لمثلي إعادة تصميم

زينب خاتون

مقدمة

في الحقيقة أنا لست ممن يشتغلون بالعمارة الاسلامية ، فدراستي وميولي لا يؤهلاني لذلك، ولي رأي صادم في العمارة الاسلامية سأذكره للقارئ فيما بعد. لكن القدر وضع العمارة الاسلامية في طريقي من خلال أربع مشاريع كان مشروع إعادة توظيف منزل زينب خاتون أهمها.

شرفت بأن أوكل إلي وضع التصميم المعماري كخبير استشاري خارجي لمكتب استشارات مصر. "الأستاذ الدكتور مختار صديق" ووضعت اربع اقتراحات لإعادة الإستخدام Reuseووضعت بعد ذلك تصميم القبة، التي اصبحت فيما بعد معلما لزينب خاتون وكانت موضوع نقاش ومثار جدل.

الأقتراح الأول كان بتحويل خاتون إلى متحف يستقبل العديد من الزوار ، والاقتراح الثاني كان مجمع مطاعم ، أما الإقتراح الثالث فقد كان مركزا إسلاميا . ووقع الإختيار على الإقتراح الثاني بسبب أنه اكثر الإقتراحات جلباً للعائد المادي.

لكن أي معماري تكون أحلامه المعمارية بوضع بصمة تجعل المبنى معلماً من معالم المدينة ، لا أن يرمم المبنى وأن يغير وظيفته الداخلية فقط.

ولكن متى وكيف نشأت فكرة القبة؟

نشأت ونحن نزور المكان ونرفع أبعاده ، حين قال لي أحد مهندسي المرافقين لنا : هل رأيت المنظر من فوق السطح يادكتور ؟ قلت له لا ، قال إذا أصعد ، وصعدت فإذ بي أرى مآذن الأزهر كاملة ومآذنة قلاوون على مسافة أبعد . إنها معالم القاهرة التاريخية في منظر بديع.

في نفس الوقت تزاحمت في رأسي فكرة أننا لابد أن نغلق الصحن عند تغيير وظيفة المبنى ، لأننا في كل الأحوال سنضع مكيف هواء Air-condition بغض النظر عن الاستخدام سواء كان متحفا أم مجمع مطاعم.

ولقد رايت وأنا داخل إلى المكان احد عمال النظافة وهو يكنس الصحن ، وكانت كمية الغبار هائلة فسألته منذ متى لم يُكنس هذا الصحن ؟ فقال من اسبوع واحد يادكتور .

هنا تجمعت كل الخطوط من حتمية غلق الصحن ، لكن ماهي وظيفة الفراغ الجديد؟

لاحظت ونحن داخلون إلى المكان وجود مقهى شعبي أمام منزل خاتون . فلما لا يرفع هذا فوق سطح المبنى ويفوز زوار المقهى بمنظر أفضل بدلا من جلوسهم في مدخل البيت.

قررت عمل قبة تتسع لمقهى coffee-shop على مستويين. هذه سأشرحها فيما بعد ضمن طيات الكتاب . لكن الأهم سردا هنا أننا واجهنا مقاومة شديدة من ممثلي الوزارة أثناء عرض المشروع. وقد كنا نلتقي مع ممثلين من وزارتين ، من وزارة الإسكان ومن وزارة الآثار .

قالت لي احداهن : أنت لا تستطيع أضافة أي شيء إلى المبنى، هذا آثر . فقلت لها يعني حضرتك تريدي مني ترميم الحوائط وفقط . قالت نعم. فقلت لها : هل الأجانب تتعامل بهذا المنطق مع الآثار ؟

قالت لي : ماذا تقصد ؟

قلت لها أقصد متحف اللوفر في باريس وقبة البرلمان الألماني في برلين . نحن عندما نرمم مبنى ويستلزم الأمر اضافة كتلة فيه ، نستخدم الزجاج الخالي من أي إطارات بحيث يكون محايداً مع أي كتلة تضاف إليه، ويعكس ما حوله من طرز.

وهناك فائدة أخرى من إضافة القبة الشفافة إلى جسم خاتون ، ألا وهي أنك تعلم من بعيد أن هذا المبنى تم ترميمه ، فهي بمثابة التحديث للمبنى. أو قل إن شئت عمل تأريخ جديد للمبنى

وكانت هناك محاولات لثني الوفد عن تقبل فكرة مجمع المطاعم ، وانفض الجمع وهم رافضون. ولم يفت هذا في عضددي وكان إحساسي بالإنتصار كبيراً حتى وإن لم تنفذ القبة.

إن هذا الجمود لا ينتج شيئاً . وكل مجددي أي فن ساقهم لفكر جديد عدم إعطاء القدسية للأفكار السابقة. هل يمكن أن تنحصر.عمل الوزارات في رصد الأثر على حالته ، وإلغاء العقول تماما عن أي ابتكار أو بداية ابتكار.

إن هذا حكم بالموت على أجيال متعاقبة لم تشق طريقها بعد ة، ولكننا نحن أومأنا إليها أن ليس في الإمكان أفضل مما كان.

أذكر هنا ابن رشد ، شارح أرسطو إلى الغرب كيف حرقوا كتبه، وأذكر أيضا زها حديد رحمها الله ، أنها ظلت خمسة عشر.عاماً لاتكسب أي مسابقة تشارك فيها إلى أن كسبت أول مسابقة. هم لم يفهموا خطوطها تماما كما لم يفهم الناس كتب ابن رشد.

وطالما نحن نتحدث عن زها ، إذا نحن نتحدث عن ال Deconstruction ، التي مازال لها معارضون في الوطن العربي ، وأقول كلمة بسيطة جدا : إن البعثرة أو التشظي هو الذي يكسب الكتلة ثراء معماريا في مفرداتها، وذلك لأن كل شيئ مرسوم بالميلمتر خالي من الروح ، فهو متماثل جداً ، متساوي جداً دقيق جداً ، مما يجعله جامداً . فإن ما ملك هذا الشيئ عيوبا أو نواقص أصبح آدمياً به روح ، لأن النقص قرين ابن آدم .

الأمر الآخر هو ما رددته كثيرا ، في أكثر من كتاب وأكثر من محاضرة ، أن ما ننتج في العمارة من أشكال هي في الحقيقة صناعية ، لأنه لايوجد في جبل على شكل مستطيل أو شجرة على شكل كرة ، فالأشكال التي تنتجها ال Deconstructionإذا أشكال طبيعية بتشظيها وتبعثرها وعدم رتابتها.

رأي صادم في العمارة الإسلامية

هذا الرأي أكتبه بعد تردد شديد ، فالناس تأخذ مظاهر بسيطة وعناصر فردية على أنها وصف عام للعمارة الإسلامية. والعمارة الإسلامية غير ذلك ، هي حتى أكبر من تحقيق الخصوصية والبناء عكس اتجاه القبلة لدورات المياة.

وقبل أن أتناول هذا الموضوع بالنقاش أريد أن اطرح سؤالا ، لماذا عرفت الزخارف الإسلامية تلك التقاطعات من الخطوط المستقيمة والمثلثات ومنحنيات أوراق الشجر؟ لماذا هذا الطراز من الخطوط ؟

والجواب أن الإنسان بداخله طاقة فنية هائلة ، في العادة تخرج في رسم الطبيعة والأشخاص . ولما حرم الإسلام التصوير ونهى عن رسم الأشخاص على جدران المساجد كما هو الحال في الكنائس ، ظهرت تلك التقاطعات في الأشكال الهندسية والأنواع المختلفة من الخطوط.

إذا فظهور هذا الفن ، أعني به فن الآرابيسك ، كان تلبية لحاجة الانسان الداخلية أكثر منه فناً ترفياً لا داعي له.

فماذا عن العمارة الإسلامية ؟

إذا ما تتبعنا كلمات العمارة أو الإعمار أو البناء في القرآن الكريم ، فإننا لانجد ذكرا للمشربية أو الملقف ونجد لأشياء أخرى مثل ال structure ذكراً.

قال تعالى " أفلم يروا إلى السماء فوقها كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج"

الكلام كله عن الإنشاء ، وقال سبحانه وتعالى أيضا في أية اخرى

" والسماء بلا عمد ترونها "

أي بدون أعمدة . معنى هذا أن الله يعجز عبادة بأن هذه السماء التي فوقهم لا توجد أعمدة لحملها . معنى هذا أن السماء لها وزن ، وهو ما نعلمه منذ أمد بعيد. والله يتحدى عباده بالبحر الكبير Long-Spane

وقال تعالى " إرام ذات العباد التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمودا الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد.

وقال أيضا " وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين "

فالله حين يتحدث عن البناء يتحدث عن عظائم الأمور وعظائم الأمور رفع السماء بلا أعمدة ، وبلغتنا الهندسية ال long-Spane. أو الإرتفاعات الشاهقة كما ورد في كلمة فارهين . من وهذا امر أمور الإنشاء لا الزخارف.

حتى المشربية التي هي من أهم عناصر العمارة الإسلامية وتدرس على أنها فلتر رؤية، أمر غير صحيح فالعرب كانت لا تحجب نسائها وتسترها خلف الجدر بل كانت المرأة تخرج لتطبب الجرحى في ساحات المعارك. فما قصة المشربية؟

المشربية من الشرب أي المكان الذي يوضع فيه أدوات الشرب، ولأن الماء البارد هام جدا عند العرب فهم في بيئة صحراوية، ولأن المكان المظلل والذي يسمح بدخول تيارات الهواء يعمل على تبريد المياة، كان لابد من استخدام هذا المكان المظلل الذي يسمح بدخول الهواء فيبرد الفخار ومن بعده يبرد الماء الذي بداخل الفخار. فالمشربية إذن هي الثلاجة.

هذا ليس معناه أننا ننتقص من الزخارف الإسلامية أوبعض المفاهيم الخاصة بها ، ولكن معناه أننا لم نعطي المفهوم حقه الكامل إما بإختزال الفهم أوبالتقصير. لقد كنا قديما أساتذة العالم ، كنا سببا في حضارة أوروبا. والذي ينظر إلى كنيسة نوتردام في باريس يجد بها العديد من العناصر الإسلامية ، أول تلك العناصر القوس المدبب الذي زاع وانتشر في أوروبا وبعد ذلك أصبح سمة للعمارة القوطية.

ولقد رأينا من أعلام العمارة الحديثة كنورمن فوستر وسانتيجو كالاترافا وغيرهم يهتمون بشدة بعلوم الإنشاء ، هذا الإهتمام يقودوهم إلى أن كل ما يصممون من أعمال تكون معالم للمدينة التي يبنون فيها Landmarks ، مثل اهتمام القران تماما حين يتحدث عن العمارة.

فما بالنا اهتممنا بالقشور وهي الزخارف وتركنا الأصول التي تجعل ما نصمم اعجوبة هندسية وهي علوم الانشاء. كل اهتمام العاملين بالعمارة الإسلامية هو معرفة ما اذا كانت تلك المشربية مملوكي أم فاطمي ، لم يهتم أحد بتطوير المشربية كما فعل جون نوفل في معهد العالم العربي في باريس .

لقد استطاع هذا الفذ باختيار عنصر إسلامي من حيث الشكل وتطويعه وتدعيمه بأدوات العصر أن يجعل من مبنى معهد العالم العربي لغة جديدة في العمارة وهي العمارة الذكية التي تحس وتتفاعل ، فواجهات المعهد كلها موصلة بحساسات تقيس كمية الإشعاع الشمسي، وإذا ماكان الإشعاع كثيفا أغلقت المشربية ، وإذا ما كان الإشعاع قليلا فتحت المشربية.

وكأن المشربية إنسان يحسى ويتفاعل !

فهل هي كانت قديما كذلك ؟ بالطبع لا ، ولكن نوفل جعل من الشيء القديم علامة جديدة ولغة من لغات العصر . ولأن الخشب ثقيل ولن يستطيع نوفل تحريكه إستبدله بالألومنيوم حتى يستطيع أن يحقق فكرته.

فهل وجد من المعماريين العرب من فكر بنفس الإسلوب ؟

بالطبع لا ، لأننا فطمنا وفطرنا على تعظيم وتأليه الأشخاص والتغني بما قدموا من أعمال.

انني على الرغم من أنني لست من صناع العمارة الإسلامية ولست من المنشغلين بها، إلا أنني أشعر أننا نسير في طريق مسدود وأننا سنظل نقله لا نطور ولا نجود ، وكل ما لدينا من علم هو البكاء على أطلال الراحلين ممن أثّروا وأثروا العمارة الاسلامية.

وإنني أزعم أنني من خلال تجربتي في زينب خاتون أنني خالفت السابقين في التعامل مع الآثار الإسلامية وكنت أكثر جرأة في التصميم حتى يتحقق الجذب وشد الإهتمام مع الحفاظ على الوظيفة الرئيسية للمبنى .

لقد بلغ بنا التقصير أو القصور كل مبلغ حتى أننا إذا ما ذكرنا العمارة الإسلامية ذكرنا أنواع الخطوط وأشكال الزخارف هندسية كانت أم نباتية وتناسينا أو نسينا. خامات البناء أهي عازلة للحرارة أم غير عازلة، نظريات الإنشاء هل تمكني بتلك الخامات من عمل بحر كبير أو ارتفاع شاهق أم لا؟

لقد قلت في غير مرة أن على محبي الراحل المبدع حسن فتحي أن يطوروا عمارته بدلا من التغني بحكاياته ، وكم قطة كان يملك. رحم الله الراحل العظيم واسكنه فسيح جناته ، وأنا لم أقصد الإساءة إلى شخصه بتلك العبارة لكني سمعتها في أحد المؤتمرات حديثاً

فذكر العمارة في القرآن كان مرتبطا بعظائم الأمور ، وأذكر هنا أنني في أحد كتبي السابقة "الإبداع الإنشائي إبداع منطقي" قلت إن ذكاء المهندس الذي يهندس بناية ما أن يجعل الأسباب التي دفعته لهذا التصميم أسبابا ضرورية لثبات المبنى ، أي أن بدونها ينهار المنشأ ' والتصميم لن يكون كذلك إلا إذا كان صاحبه يجيد التعاطي مع النظريات الإنشائية أو يعرف الفرق بين ال Flat-Slab وال Panel-Beam أو الفرق بين ال Double Integration method في حساب هبوط الكمرة وبين Supper Position ، على سبيل المثال لا الحصر.

أما أن تنحصر العمارة في الرسم وفقط ويصبح طلاب قسم العمارة في الجامعات المصرية هم فشلة الطلاب ، الطلاب الذين لا يحبون الرياضيات والفيزياء ويرغبون في حمل لقب مهندس ، فلا تنتظر منهم شيئاً ولا ترجوا منهم إبداعاً.

تأثير المسلمين في الفلسفة الأوروبية

ليست العمارة الإسلامية وحدها هي التي أثرت في أوروبا ، بل إن علوم الفلسفة التي برع فيها الغرب مأخوذة عن الفليسوف الأندلسي الأشهر ابن رشد.

يقول العقاد رحمه الله " اشتهر أرسطو بين الأوروبيين في القرون الوسطى بإسم الفليسوف. فإذا ذكر الفليسوف بغير اسم في كتاب من كتب تلك العصور فأرسطو هو المقصود.

واشتهر ابن رشد باسم الشارح أو المعقب commentator فإذا قيل الشارح أو المعقب في كلام من كلامهم فابن رشد دون غيره هو المقصود. وقد عرف ابن رشد بين متعلمي القوم بالمعلم الأول وهو لا يعرف اليونانية ، ولم يكن شيء من كلام أرسطو قد ترجم إلى اللاتينية أو لغة من اللغات الأوروبية قبل عصر ابن رشد غير كتب المنطق ، ثم تنبه علماؤهم إلى ترجمته بعد ذيوع اسم ابن رشد ، فطلب القديس توما الإكويني من صديقه وليام مويربك Moerbeke أن ينقل جميع كتبه فنقلها، ولم يظهر بعد أن ابن رشد قد أخطأ في شيء من لباب الفلسفة ، ولم يحصوا عليه غير هفوات من الغلط ببعض الأسماء لتشابه نطقها وسائر شروحه بعد ذلك لا غبار عليها من جهة المعنى.

وحسب الرجل شهادة لروحه أن الكتب التي نقلت من اليونانية مباشرة لم تغن عنه ، فبعد أن حرم أسقف باريس دراسته في جامعتها ، وسماه رأس الضلال في منتصف القرن الثالث عشر ، عادت هذه الجامعة نفسها بعد قرن فأخذت على أساتذتها المواثيق ألا يعلموا فيها شيئا لا يوافق مذهب أرسطو كما شرحه ابن رشد ، وأصبحت كتبه مادة لا تنفد للدرس والمناقشة في البيع والأديرة والجامعات.

أقول هذا على الرغم من أن الفلسفة فن غربي بحت، إلا أن ابن رشد كان استاذهم الأكبر ، ورائدهم الأعظم. وعلى الرغم من تحريم الإشتغال بالدراسات الدنيوية أو العالمية على الرهبان ، أقبل على دراسة ابن رشد ومناقشته والاستفادة منه قطبان إمامان في رهبنة الدومينيين ورهبنة الفرنسيسين ، وهما توما الإكويني الذي سبقت الإشارة إليه ، وروجرز باكون رائد المدرسة التجريبية التي تممها سميه فرنسيس باكون.

وقد كان من الرهبان من يتحدى أوامر رؤسائه ويمضي في دراسة ابن رشد بعد تحريمها ، كما فعل سيجر دي برابان (1235- 1282) Siger de Brabant وكان أستاذ بجامعة باريس ، ولم يقلع عن دراستها ونشرها إلا مضطرا بعد صدور الأمر من روما (سنة 1266) بتأييد أسقف باريس في قرار التحريم .

وكانت كتب ابن رشد وشروحه تترجم وتنشر في الجامعات بأمر ملك من الملوك المستنيرين في ذلك الزمن ولم يكن يبالي ما يقال عنه في المجامع الدينية ، وهو فردريك الثاني ملك صقلية وحامي العلم والأدب في زمانه (1194-1250) فإنه كلف العالم الإيقوسي ميخائيل سكوت بترجمة الشروح وأرسلها إلى جامعة بولون وجامعة باريس كأنها مفروضة على طلبة الجامعات.

ولم يبق في القرن الثالث عشر وما بعده أوروبي يشتغل بالثقافة أو يسمع بأحاديثها إلا عرف شيئا عن ابن رشد وأعجب به أو رد عليه ، ولو لم يكن من الفلاسفة والمنقطعين للعلوم.

فذكره دانتي الشاعر في الكوميديا الإلهية ، وناقشه في مسألة الروح (1265-1321) وذكره الناسك سفونرولا Savonarola (1452-1498) وسماه بالعقل الرباني واستهدف للسخط من جراء الثناء عليه.

وما من مدرسة فلسفية نشأت في أوروبا بعد القرن الثالث عشر الا أمكن أن تنتسب من قريب أو بعيد إلى الثقافة الرشدية . سواء بالإطلاع على تلك الثقافة أو بالإطلاع على تعليقات المعلقين عليها ، نقضاً واستنكاراً أو تأييداً وإعجاباً من كلا الطرفين.

فمدرسة الحقيقيين Realists ومدرسة الأسميين Nominalists إنما هما طرفان في موضوع واحد فتح ابن رشد أبوابه، فلم تزل مفتوحة بعده عدة أجيال، ذلك الموضوع هو النفس الفردية والنفس النوعية ، ومايقال عن الوجود الحقيقي في الأشخاص أو في العقول المفارقة.

فالحقيقيون يرون أن النوع هو الوجود الحقيقي الذي يوجد الأشخاص لتمثيله في العالم المحسوس ، والأسميون يرون أن وجود النوع إنما هو اسم أو كلمة مالم تقترن بوجود الأشخاص .

وقد كان اثنان من تلاميذ روجرز باكون – تلميذ الثقافة العربية – يعالجان هذه المسألة من طرفاها ، وهما سكوتس Scots (1266-1308) مؤيد القول بحقيقة النوع، وأكهام Ockham (المتوفي سنة 1349) مؤيد القول لحقيقة الشخص أو الفرد ومسخف القائلين بحقيقة النوع ، وحسبك من بعد الأثر الذي أعقبته هذه المناقشة أن لوثر كان يفخر فيقول :أستاذي العزيز أكهام.

وقد دارت بين فلاسفة القرون الوسطى مساجلات مسهبة حول قدرة الله وعلم الله ، أو حول الإرادة والفكرة ، لا نظن أنها مرت دون أن تدخل في تفكير المطلعين عليها لحينها والمطلعين على حواشيها وذيولها في العصور الحديثة ، ومنهم الفليسوف الألماني الكبير آرثر شوبنهور (1788-1860) صاحب القول بفلسفة الإرادة والفكرة ، وأن الرجوع إلى الفكرة هو غاية السعادة التي يرجوها الإنسان ، لأن الفرد رهن الزوال ولابقاء لغير العقل الذي يترفع عن عالم الواقع أو عالم الإرادة.

ويقول النقاد من الإسرائيليين وغيرهم إن اسبينوزا الفليسوف الإسرائيلي الكبير (1632-1677) أخذ من موسى بن ميمون معاصر ابن رشد وإن موسى بن ميمون أخذ من الفلسفة الرشدية ، ولاسيما الإلهيات وما بعد الطبيعة ، ويقررون إن أثر الفلسفة الرشدية في مذاهب الفلسفة اليهودية ظاهر كأثرها في مذاهب الفلسفة المسيحية ، وإن اختلفوا في المدى والمقدار .

ويقول العقاد أيضا:

ولانظن أن مذهب ليبنتز Leibniz (1646-1716) في الممكنات المجتمعة بعيد عن مذهب ابن رشد في الممكنات المخلوقة لحكمة إلهية ، فخلاصة مذهب ليبنتز أن تغيير ممكن واحد ليس بالمستحيل ، ولكن تغيير الممكنات التي يتمم بعضها بعضاً ويتعلق بعضها بغرض البعض الآخر هو المستحيل ، ولهذا كان يقول عن الدنيا إنها أحسن دنيا ممكنة ،وهذا بعينه كلام ابن رشد حين رد على القائلين بجواز تغيير الممكنات ، وإن هذا العالم كله جائز أو غير واجب الوجود فهو قابل للتغيير ، فإن جواب ابن رشد على هذا القول كما قدمناه أن المخلوقات التي خلقها الله على صورة من الصور لحكمة يريدها لا يمكن أن تتغيير، وإلا كان خلقها على تلك الصورة عبثا ، والعبث مستحيل في حق الله.

وللفليسوف الانجليزي دافيد هيوم Hume (1711-1776) كلام عن المعجزات وكلام عن الأسباب قريب جدا من كلام ابن رشد في براهين المعجزات ، ومن كلام الغزالي الذي يرد عليه ، ومذهب الغزالي في الأسباب معروف وهو أن السبب على اصطلاحنا في العصر الحديث (ظاهرة) تقترن بالشيء وليست هي علة وجوده، وهو مذهب يوافق اراء العلماء المحدثين الذي يقررون أن كلمة العلم هي وصف الظواهر المقترنة ، وليس من مهمته أن يصل إلى العلل ولا سيما العلة الأولى.

ولدافيد هيوم غير ما تقدم رأي في الشخصية الإنسانية يقارب من بعض الوجوه رأي أرسطو كما جاء في شروح ابن رشد ، وكثرت أقوال المؤيدين والمعارضين في القرن الرابع عشر وما بعده إلى أيام هيوم . ومؤدى رأي هيوم هذا في الشخصية الإنسانية أنه يراقب نفسه كثيرا ويتعمق في المراقبة ، فلا يحس وراء الإنفعالات الحسية والخواطر المنتزعة منها شيء يدل على كيان مستقل يسمى النفس أو الذات ، ويشبه هذا الرأي أن يكون كرأي أرسطو في الشخصية الإنسانية خلواً من العقل الإلهي ، فإنها عنده جسم له وظائف جسدية أو نفس نامية ونفس شهوانية، ولا حقيقة وراء ذلك إذا استثنينا العقل الذي هو عام وغير منقسم في ذات شخص من الأشخاص.

وأقرب من هيوم إلى عصرنا وليام جيمس إمام مذهب البرجمية (1842-1910) الذي يقول في مبادئ علم النفس:

أعترف بأنني في اللحظة التي أتحول فيها إلى مباحث ما وراء الطبيعة، وأحاول أن أزيد من التعريف ، أرى أن القول بضرب من العقل العام Anima Mundi يفكر فينا جميعا هو رأي مأمول على الرغم من صعوباته خير من القول بجملة من النفوس الفردية المنقسمة تمام الإنقسام.

لا بل عندنا في العصر الحاضر من علماء النفس المشغولين بدراسات النفس الإنسانية وعللها ، رجل مثل مايرسون Myerson صاحب كتاب متحدث عن الإنسان Speaking of man يدير كتابه هذا الذي صدر سنة 1952 على دراسات في الشخصية الفردية وفي العقل والنفس والجسم ، يخيل إليك – لولا مصطلحاتها العصرية – أنها منسوخة من بعض شروح ابن رشد أو المعقبين عليه. ومن الفلسفات العصرية كفلسفة الوجودية Existentialism ما يكثر فيه الكلام عن الوجود والماهية ، وعما يسميه بعضهم وجودا (صادقا)تمييزا من مطلق الوجود فيسبق إلى خاطر المأخوذ بهذه المصطلحات لأول وهلة أنها بدعة من بدع أوروبا الحديثة ، وماهي في الواقع إلا تكرار لمصطلحات قديمة وضعت في غير موضعها ، وهذا مثال لما جاء منها في كتاب التهافت لابن رشد حيث يقول :

إن لفظ الوجود يقال على معنيين: أحدهما ما يدل عليه الصادق ، مثل قولنا هل الشيء موجود أم ليس موجود؟ والثاني ما يتنزل من الموجودات منزلة الجنس. وأما هذا الرجل – أي الغزالي- فإنما بني القول على مذهب ابن سينا ، وهو مذهب خطأ ، وذلك أنه يعتقد أن الآنية – أي كون الشيء موجوداً – شيء زائد على الماهية خارج النفس، وكأنه عرض فيها. وإن اسم الموجود يقال على معنيين : أحدهما على الصادق، والآخر على الذي يقابله العدم، وهذا هو الذي ينقسم إلى الأجناس العشرة، وهو كالجنس لها ....

لقد كان ابن رشد رائعا إذ قدم للعالم الغربي أفكار أرسطو ، وقد كانت غيبا من قبله ، وغدى بعدها شارح أرسطو.

ولانعني أن هذه الآراء جميعا وليدة الاطلاع على شروح ابن رشد بنصوصها أو ترجماتها، ولكننا نعني أن الفيلسوف الجدير باسم الفيلسوف في العصر الحديث لا يخلو أن يكون قد اطلع على مذاهب القرون الوسطى ، او على التعقيبات التي اوحتها الى الخالفين وابتعثتها في عقول المفكرين، وليس في العصر الحديث من اشتغل بالفلسفة ولم يطلع على اطوار المذاهب الفلسفية وسوابق الآراء حول اصول المسائل الكبرى فيما وراء الطبيعة ، ويكفى أن يكون قد اطلع على خلاصة هذه الأطوار لتنعقد الرابطة بينه وبين السلف الذي لافكاك منه ولا سيما السلف الذي وضع الأساس ثم تعاقبت بعده أدوار البناء .

وذلك هو المقصود ببعد الأثر الذي أحدثته شروح شروح ابن رشد في زمانها وبعد زمانها، ولا نخال فيلسوفا أو شارحا كان لكلامه من الشيوع والتأثير ما كان لهذا الشارح العظيم . انها لعبرة ليس لها مكان أحق من مكان الكلام على تاريخ فليسوف حكيم. لو كان الاعتبار بالحوادث من عادات الإنسان ، بل من عادات المشتغلين بالحكمة من الناس ، لما صودر بعد ابن رشد كتاب واحد ، ولا آمن أحد بجدوى المصادرة في تفنيد الآراء.

فقد رزق ابن رشد أنصارا ومعجبين من أصحاب الأديان الثلاثة لم يرزق مثلهم فيلسوف قبله ولا بعده، وهو هو الذي كان له مصادرون ومضطهدون من اتباع كل دين وخدام كل سلطان ، ولو أن المصادرين عملوا قصدا وعمدا على نشر آرئه وشروحه لفاتهم بعض النجاح وأخطأهم بعض التدبير.

ولك أن تتخيل أن فلاسفة أوروبا ، الذين شكلوا وجدناها وكانوا بمثابة الأنبياء لها ، سواء في المدرسة الإنجليزية "الفلسفة التجريبية من إأمثال لوك وديفيد هيوم إلى مل وراسل أو في المدرسة الألمانية " الفلسفة المثالية أمثال كانط

صاحب نقد العقل الخالص إلى هيجل، كل هؤلاء ما كانوا ليكونوا لولا ابن رشد.

أنا أعلم جيدا أن الحضارات تعطي بعضها بعضا ويأخذ بعضها من بعض. لكن فضل ابن رشد على الغرب فاق كل التوقعات. يقول العقاد رحمه الله حول المعارك الفكرية والحروب الطاحنة التي أحدثها ابن رشد ما هو نصه: رزق ابن رشد حظا آخر غير بعد الأثر واتساع مداه ، وهو قوة الأثر وعمق البحث فيه وشدة الخلاف عليه. الأمر يعطي لما يقوله ابن رشد قيمة تصل إلى عنان السماء.

فربما كان بعد الأثر واتساع مداه مسألة مسافات وأبعاد ، لكن قوة الأثر شيء آخر يقاس بدوافع الحياة والحركة النفسية ولا يقاس بالسنين والأمكنة . وهو شيء في سماء النفوس والعقول ، وليس شيء في دنيا الفضاء أو صفحات الأوراق . وقد رزق ابن رشد من هذا الحظ النادر أوفى نصيب، فما ظهرت فلسفته في مكان إلا انتصب فيه ميدان كفاح ، وكان الكفاح عنيفا والاستبسال فيه من الجانبين على غايته في مجال الرأي والعقيدة .

فلم يحفظ لنا التاريخ مساجلة بين حكيمين في قوة المساجلة التي دارت بين ابن رشد والغزالي. ويكفيك عناوين أشهر الكتب في تلك المساجلة ، لترى من ثناياها مضاء سلاح كل واحد من المتبارزين. فالغزالي يكتب كتاباً عنوانه تهافت الفلاسفة، ويعني ابن رشد ، فيرد ابن رشد بكتابٍ عنوانه تهافت التهافت ، ويعني الكتاب.

وتكون تتمت هذه المساجلة على يد ابن تيمية ، الذي ناقش براهين "مناهج الأدلة" ووضع من خلال تلك المناقشة ضوابط لعلم المنطق الإسلامي من خلال كتاب الرد على المنطقيين.

ودامت تلك المساجلات حتى القرن الخامس عشر الميلادي فعهد السلطان العثماني محمد الفاتح. وهنا أقف قليلاً لأقول إن ظهور بدايات النهضة في أوروبا ، وأعني بذلك عصر كبلر ونيوتن كان في القرن السادس عشر الميلادي.

أي أن النهضة الأوروبية قامت على أكتاف عصر العطاء الإسلامي. ولست في ذلك مبالغا ، فقد قالت المستشرقة الألمانية زيجرد هونكه نفس المضمون من الكلام في معرض كتابها " شمس العرب تشرق على الغرب" Allah sone ueber den Abend-land

وأعود مرة أخرى لابن رشد فأقول : أما في أوروبا فلم تنقطع المناقشة من الفلسفة الرشدية من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر ، ثم كان لها استئناف في القرن التاسع عشر على يد الباحث والمؤرخ ارنست رينان (1823-1892) صاحب كتاب حياة المسيح وكتاب ابن رشد والرشدية وغيرهما. وشملت المناقشة والصخب معسكر اللاهوت المسيحي ومعسكر اللاهوت الإسرائيلي. فعلى الرغم من تحريم المجمع الكنسي لهذه المباحث في أوائل القرن السادس عشر ظلت المعركة محتدمة طوال ذلك القرن ، ولم تزل كذلك حتى اختتمت بالمساجلة الكبرى بين المتفلسفين الإيطاليين أشليني Achillini وبومبوناتسي Pomponatzzi ولولا نشأة المباحث العلمية الحديثة-عصر النهضة الأوروبية- لما انقطع هذا السجال.

وتتابعت في العالم الإسرائيلي مساجلات كهذه أو أشد منها عنفاً كان المعارضون فيها لإبن رشد يستندون لكتاب الغزالي تهافت الفلاسفة في الرد عليه.

وأظن – كما صرح بذلك العقاد رحمه الله أن قوة هذه المعارك الرشدية أنها اشتملت على مباحث بالعقائد الدينية ، وأنها ظهرت عند نهاية عصر التقليد وبداية عصر الإجتهاد ، فكان لها شأنها عند الأحبار والعلماء وبين المقلدين والمجتهدين .

هذا هو أثر ابن رشد في الحضارة الغربية.

تطور العمارة الإسلامية

بدأت العمارة الإسلامية مع بزوغ فجر الديانة الجديدة ، إذ أن الأسلام وضع المبادئ والقيم التي تنظم حياة من يدينون بهذا الدين. بدأت العمارة الإسلامية في ذاك العهد بسيطة تخلو من الزخارف، فالمسلمين في ذاك العهد كان جل اهتمامهم بالفتوحات واقامة الدولة، ولم يكونوا قد انصرفوا بعد إلى الأدوات التي تقيم فناً اسلامياً.

يقول الدكتور كمال الدين سامح " يعتبر فن العمارة الإسلامية من أوسع الفنون انتشاراً، فقد امتدت الامبراطورية الإسلامية من الهند وآسيا الوسطى شرقاً إلى الأندلس وبلاد المغرب غرباً ومن جنوب إيطاليا وصقلية شمالا حتى بلاد اليمن جنوباً . "

وبسبب إتساع تلك الرقعة كان من الطبيعي جدا أن تختلف الطرز المعمارية. فهي نتيجة اختلاف الطقس واختلاف الثقافة واختلاف مواد البناء. ومن مظاهر اختلافها أيضا اختلافها في تيجان الأعمدة واختلافها في المآذن والقباب والدلايات والمقرنصات وانواع الزخارف الهندسية ،النباتية والخطية ، وكذلك اختلافها في مواد تغطية الجدران كالجص والقاشاني.

لقد كان غالبا على الجماعة الإسلامية الناشئة على عصر.النبي صلى الله عليه وسلم وعصر الخلفاء الراشدين من بعده البساطة وخشونة العيش والجهاد في سبيل الله. ولم يعرف من العمارة شيء في ذلك العهد سوى دار النبي صلى الله عليه وسلم وبعض المساجد المبنيه من الطوب اللبن وزعف النخل. وكانت جذوع النخل هي أعمدة تلك المساجد. وبعدما انتقلت عاصمة الخلافة من المدينة إلى دمشق في خلافة بني أمية ظهر الفن الإسلامي الأول. وهو بذاك الطراز المعماري الأول في العمارة الإسلامية.

وقد بنى المسلمون في ذلك العصر عدة آثار معمارية لاتزال قائمة إلى الآن أهمها قبة الصخرة ببيت المقدس والمسجد الأموي بدمشق وعدة قصور بناها الأمويون في بادية الشام كقصير عمرا ، وقصر المشتى وقصر الطوبة . وقد كان يأوي إليها الأمراء للصيد أو حين تنتشر الأمراض في المدينة. وكان البعض منها يشبه الحصون الصغيرة ، وكانت جدرانها وأسقفها مزينة بنقوش آدمية ذات ألوان زاهية ، تظهر في ملامحها المؤثرات البيزنطية.

وبظهور الدولة العباسية انتقلت العاصمة من دمشق إلى بغداد تغيرت أساليب العمارة وغلب عليها الأساليب الساسانية. كانت باكورة تلك الأساليب تخطيط مدينة بغداد الدائري حول نهر دجلة.

وكان بداخل تلك المدينة القصر والجامع ، وكان للمدينة أربعة أبواب هي باب الشام وباب خراسان وباب الكوفة وباب البصرة ، وغالبا ما تكون تلك الأسماء تدل على الجهات المختلفة. فمثلا باب الشام جهة الشام وباب الكوفة جهة الكوفة وهكذا.

وفي سنة 836م شيد الخليفة المعتصم مدينة سامراء أو (سر من رأى) على الضفة اليمنى من نهر دجلة شمال بغداد . وكشفت الأيام والليالي عن مولد أحمد بن طولون الذي ولد بمدينة سامراء وكان له الفضل في نقل أساليب العمارة من مدينة سامراء إلى القاهرة وتأسيس الدولة الطولونية فيها ، بل إن مسجده الذي بناه في مدينة القاهرة كان له نفس المآذنة الملوية في مسجد سامراء.

وانتقلت بؤرة العالم الاسلامي من بلاد الرافدين إلى القاهرة بتأسيس الدولة الفاطمية وبناء أسوار المدينة وجامعها الأزهر . وكانت القاهرة في تلك الحقبة عاصمة الدنيا وإليها تشد الرحال لطلب العلم من رحاب وزوايا وأروقة جامعها الأشهر الجامع الأزهر.

ووجدت مساجد أخرى على نفس القدر من البراعة والهندسة كجامع الحاكم وجامع الأقمر وجامع الصالح طلائع. وأقف قليلا عند مسجد الحاكم لأقول :

لقد ظهر من نصاعة الفكر وعمق التفكير وثبوت القدم أن مهندسي هذا المسجد وبناؤه قدموا العطر والرائحة الذكية في المكان على إنتشار صوت الآذان فبنوا مبخرة مكان المآذنة. وكانوا يستخدمونها في تبخير المكان كل ليلة جمعة.

وفي عصر الدولة الأيوبية أشتهرت العمارة الحربية في صورة القلاع وأشتهرت أيضا عمارة المدارس التي كانت تدرس المذاهب الفقهية الأربعة ومن أهم منشأتها ضريح الإمام الشافعي بقبته الجميلة المحمولة على المقرنصات.

وتلا ذلك العصر عصر المماليك الذي تطورت فيه وبرزت العناصر المعمارية للطراز الاسلامي ، فظهرت القبة البصلي في شكلها المطور وظهر القوس المدبب في مسجد السلطان حسن ، أبهى تحف مصر المعمارية. وكذلك مدرسة قايتباي وضريح المنصور قلاوون.

على الطرف الآخر من البحر الأبيض المتوسط ظهر الطراز الأسباني المغربي في القرن الثاني عشر الميلادي ويمتاز بعقوده على شكل حدوة الحصان . وقد شيد المسلمون كثيرا من العمائر الشهيرة من هذا الطراز المغربي مثل جامع الكنبية في مراكش ومنارة جامع اشبيلية. كذلك وقبل كل ذلك قصر الحمراء في غرناطة ، درة العمارة المغربية.

ثم ظهر العثمانيون والخلافة التركية ، آخر رابطة كانت تجمع العالم الإسلامي ودامت لخمسة قرون. كان للمساجد التركية طرازا أقرب إلى الغرب بسبب متاخمة المكان لاوروبا. أما المساجد فقد كانت مأذنها طويلة ومدببة .

من أشهر تلك المساجد جامع السلطان أحمد وجامع السليمانية. أما العمائر من الطراز الفارسي فتمتاز بتكسيتها ببلاطات القيشاني الملونة للجدران والواجهات. ويعتبر عصر الأسرة الصفوية في القرنين السادس والسابع عشر الميلادي من أزهى العصور في العمارة الإيرانية .

وأخيرا وليس آخر فقد وجد الطراز الهندي المأخوذ من الطراز الفارسي ، وهو أمر طبيعي بسبب متاخمة الإقليم. ومن سمات هذا الطراز العقود المدببة والقباب البصلية بزخارفها الدقيقة.

ومن أهم المنشأت المعمارية الهندية ضريح تاج محل الذي شيده الأمبراطور شاه جهان في أجرا لزوجته ممتاز محل بين عامي (1039 -1058هـ) الموافق (1630 -1648م)

نخلص مما تقدم أن الطرز الإسلامية المنتشرة في ربوع العالم الإسلامي اختلفت بسبب اختلاف الإقليم. الذي هو متأثر بالمناخ والثقافة والعادات والتقاليد لذاك الإقليم. وهذا الكتاب يحصر الحديث على عمل معماري بني في عصر المماليك. أو قل إن شئت منزل لحفيدة السلطان حسن السيدة شقراء هانم جسد علامات ذلك الطراز. ولكن قبل الحديث عن المنزل من هم المماليك وماهي سمات ذلك العصر وهل كانوا متواجدين في مصر وحدها أم كان لهم تواجد في اجزاء أخرى من العالم الإسلامي؟

من هم المماليك ؟

يعد عصر دولة المماليك في مصر وبلاد الشام فترة مهمة من تاريخ العالم الإسلامي، تلك الدولة التي استطاعت أن يمتد نفوذها من بلاد مصر إلى بلاد الشام في الشمال الشرقي ، وحتى الحجاز واليمن في الجنوب الغربي ، حكمت ما يقرب من الثلاثة قرون في مرحلة مضطربة ومليئة بالأحداث الجسيمة. إذ تكون عصرا بين مرحلتين هامتين ، المرحلة الأولى تاريخ الخلافة العباسية في بغداد ومجئ المغول وغزوهم مركز الخلافة عام 656هـ/1258م ، والمرحلة الثانية ظهور الوجود العثماني في الوطن العربي عام 1517م وبدء مرحلة جديدة من الخلافة استمر زهاء أربعة قرون.على هذا الأساس فإن مسألة الخوض في التاريخ المملوكي غير هينة وتحتاج مراجعة وتدقيق. <u>وقبل الحديث عن بيت خاتون لابد من الإلمام بأجواء تلك الحقبة من الزمن ، حتى نعلم المؤثرات على التشكيل المعماري</u>

وجاز لنا أن نقول بأن تاريخ المماليك له عدة وقفات:

الوقفة الأولى تتلخص في نهاية الدولة الأيوبية في مصر والشام كرد فعل طبيعي للنزاعات الداخلية والخطر الصليبي ، الذي أعقبه توحيد البيت الأيوبي مع حملة لويس التاسع على مصر.

الوقفة الثانية في نشوء دولة المماليك البحرية وظهور شجرة الدر واستئثارها بالحكم. والمؤامرات الداخلية من لدن الأمراء ، مع بروز

عز الدين أيبك، وسيف الدين قطز وتناوب السلطنة إلى حين اعتلاء قطز العرش ومسيرته لهزيمة المغول في عين جالوت عام 1260م. تلك المعركة الفاصلة في تاريخ العرب والمسلمين والتي دحرت المغول إلى خارج حدود الشام. ثم مقتل قطز على يد الظاهر بيبرس ودخوله قاهرة المعز منتصرا ثم صعوده إلى العرش ملكاً متوجاً.

وقد كان بيبرس قوياً بالقدر الذي يسمح له بصد كل محاولات المغول التي لم تتوفق وعمل اصلاحات داخلية في ذات الوقت في الثغور والبريد والأسطول والبحرية والجيش.

الوقفة الثالثة عند حكم أسرة قلاوون لمصر بدءاً من المؤسس المنصور سيف الدين قلاوون وتثبيته لركائز ودعائم الأسرة القلاوونية مروراً بخلفه ابنه الأشرف خليل الذي أنقذ الشام من آخر موجة صليبية وحرر عكا عام 1291م وبدء مرحلة الإغتيالات السياسية في البيت المملوكي تمثلت في مقتل خليل على يد أحد أمرائه والذين تجاوزوا حدودهم وصلاحياتهم وتطلعوا إلى السلطان والسلطنة لتبدأ مؤامرات متواصلة من بيدار إلى كتبغا إلى لاجين حتى يصل الحكم إلى محمد الأبن الثالث الأصغر لقلاوون والذي حكم أطول فترة من الحقبة المملوكية ولثلاث سلطنات تقاذفته فيها الرياح والأعاصير ، ومؤامرات الأمراء، ومواجهة الأعداء في الخارج من مغول وصليبيين وظهور مغتصب جديد هو بيبرس الجاشنكير إلى حين عودة الناصر محمد بن قلاوون في السلطنة الثالثة سلطانا قويا شابا، ليبدأ سلسلة إصلاحات وإنجازات داخلية وخارجية جعلت من عهده عهدا زاهرا في تاريخ مصر والعالم الإسلامي. وهو هو نفس العهد الذي كان فيه قمة العمارة المملوكية وقد نضج طرازها

وعرفت مفرداتها ثم دخلت من باب العمارة الأكبر لتكون علامة لحقبة تاريخية معينة.

إن المماليك وإن كانوا عبيدا اشتراهم الأيوبيون لتقوية الجيش الأيوبي إلا أنهم قاموا كردة فعل لمبدأ التوريث الذي ساد في الخلافتين الأموية والعباسية. وهو أمر يخالف الشرع ، بل إنه لم يوجد على عهد الخلفاء الراشدين الأربعة.

وقد يقول قائل أن لا وجود للحكم الإسلامي ، وأنه إن وجد فقد وجد على عهد الخلافة الراشدة فقط . وأقول بشيئ من العقلانية والموضوعية ، لابد لنا أن نفرق بين أمرين ، بين الإسلام والمسلمين ، فالإسلام مبدأ والمسلمون هم أناس يحاولون تطبيق هذا المبدأ بنفوس قد تحمل الشهوة وحظ الشيطان.

وقد وجد في التاريخ الإسلامي أناس كانوا يحاولون كل فترة إعادة الدفة إلى مكانها، أمثال عمر بن عبد العزيز وابن تيمية وغيرهم.

إذا فهو أمر طبيعي جدا ، وتداخل العنصر البشري يجعله أكثر طبيعية ، ويجعل منحنى التطور الزمن له قيعان كما له قمم ، أو هي سنة التدافع التي فطر الله الكون عليها لا الناس فقط.

لويس التاسع والحملة على مصر

بعد إستعادة المسلمين لبيت المقدس 642هـ/1244م دعت البابوية إلى حملة صليبية جديدة ، لكن ظروف ملوك وأمراء أوروبا حينذاك لم تكن تسمح لهم بالإستجابة إلى ذلك عدا الملك الفرنسي لويس التاسع ، الذي لقب بلويس القديس أو لويس الورع أو لويس التقي والذي قدم من دمشق إلى مصر ليدك حصونها ، فمن مصر خرج صلاح الدين الأيوبي بجيشه الجرار ليستعيد بيت المقدس وقد إستعادها.

وصل لويس التاسع إلى قبرص في سبتمبر 1248م وقرر بعد أشهر من الاستعدادات والتموين مهاجمة دمياط ، وأبحرت الحملة في العام التالي واعتبر لويس التاسع مصر مفتاح الحملة على الشرق ستمهد له الطريق نحو بيت المقدس وفلسطين كلها، فضلا عن إنهاء قوة السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، يعني القضاء على أكبر قوة عسكرية إسلامية في الشرق ، وبذلك تفتح الأبواب أمام لويس في الشام ومصر.

وعلى الرغم من تحذير لويس للسلطان نجم الدين أيوب من المقاومة ، إلا أن السلطان نجم الدين رد عليه بشدة أنه سيموت من أجل الدفاع عن أراضي المسلمين وسوف يكبد الصليبين الخسائر والأرواح. ونجح السلطان في تحصين دمياط بالأسلحة

والعتـاد ، فقـرر لـويس التاسـع الـنزول إلى الضـفة الغربيـة للنيـل في مواجهة دمياط ، ولم يستطع الأمير فخر الدين يوسف ، الذي عهد لـه السـلطان بالـدفاع عـن دميـاط مـن أن يصـمد وأتجـه إلى الضـفة الشرقية مع رجاله هرباً من قوات لويس التاسع التي نزلت إلى الضفة الغربية من دمياط، وهـرب أهـل المدينـة بعـد أن أحرقـوا الأسـواق ، وأصبحت مفتوحة أمام الصليبين فدخلوها عام 1249م.

مكث لـويس خمسـة أشـهر في دمياط لـم يتقـدم نحـو داخـل مصر ، الأمـر الـذي سـاعد السـلطان الصـالح أيـوب أن يسـتعد لملاقاتـه، ووصـلت إمـدادات للـويس التاسـع مـع أخيـه ، الأمـر الـذي دفعـه للزحف نحو القاهرة ، إلا أن الملك الصالح نجم الدين أيوب توفي في وقت حرج ، في ظل مواجهة مع الصليبيين.

<u>في هذا الوقت استدعت زوجة السلطان شجرة الدر الإبن الوحيد للسلطان توران شاه من حصن ديار بكر نحو مصر ، ورغم محاولة شـجرة الـدر إخفـاء خـبر مـوت السـلطان إلا أن الخـبر قـد انتشر في المسلمين والصليبين كذلك.</u>

الأمر الذي دفع لويس التاسع للسير جنوبا نحو المنصورة ، لكن سـيره لـم يكـن في محلـه فقـد استبسـل المصريون دون دخـول المنصورة ، وتم أسر لويس التاسع ، ودبت روح جديدة في المصرين بعد مقدم توران شاه.

كانت هزيمته في شكل إنسحاب بالجيش من المنصورة والعودة إلى دمياط. وتمت لهم الهزيمة في فارسكور قتل الكثير وأسر البقية وكان من ضمن الأسرى لويس التاسع.

عين جالوت .. إنجاز المماليك الأعظم

حتى وإن كان التاريخ مليئاً بالدسائس والأطماع إلا أن به بعض اللحظات المضيئة مثل لحظة عين جالوت. وأرى أن كثرة السواد وقلة البياض في معرض التاريخ أمر طبيعي جداً فصناعه آدميون تغلب عليهم الشهوة والفتنة.

كثير من الناس يقولون إن التاريخ الإسلامي تاريخ مظلم ، لم ينجوا منه إلا فترة الخلفاء الراشيدين. والمتطرف منهم من يقصرها على نهاية فترة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وأقول وإن جازت تلك المقولة فصناع هذا التاريخ بشر السائد فيهم الشر لا الخير والأصل فيهم الخطيئة لا البراءة. وذلك حتى يكون للخير معنى وللبراءة قيمة.

وتأتي لحظة عين جالوت..

كانت هذه اللحظة في 3 سبتمبر من عام 1260م ، وهي المعركة الفاصلة التي انتصر فيها المسلمون إنتصاراً ساحقاً على المغول، وكانت هي المرة الأولى التي يهزمون فيها منذ عهد جنكيز خان.

أدت المعركة إلى انحسار نفوذ المد المغولي في بلاد الشام ، بعد أن أسقطوا الخلافة العباسية عام 656هـ-1258م . وأدت المعركة كذلك إلى تعزيز موقع دولة المماليك في مصر كأقوى دولة إسلامية

في ذاك الوقت ولمدة مايقرب من ثلاث قرون إلى أن قامت الخلافة العثمانية.

وقعت المعركة في منطقة تسمى عين جالوت بين مدينة جنين والناصرة وبيسان شمال فلسطين. التقى الفريقان في هذا المكان بعد أن قسم سيف الدين قطز جيشه إلى مقدمة بقيادة بيبرس وبقية الجيش يختبئ بين التلال والوديان المجاورة لتنفيذ هجوم مضاد محتمل.

كان قطز قد اجتمع بالأمراء وحضهم على قتال التتار ، وذكرهم بما وقع لأهل الأقاليم من القتل والسبي والحرق ، وخوفهم من تكرار ذلك ، وحضهم على استنقاذ الشام من التتار ونصرة الإسلام والمسلمين ، ففجوا في البكاء وأقسموا على الموت في سبيل الله.

قامت مقدمة الجيش بقيادة بيبرس بهجوم سريع ثم انسحبت متظاهرة بانسحاب مزيف هدفه سحب خيالة المغول إلى الكمين ، في حين كان قطز على أهبة الإستعداد لهجوم مضاد كاسح ومعه قوات الخيالة الفرسان الكامنين فوق الوادي.

وانطلت الحيلة على كتبغا فحمل بكل قواه على مقدمة الجيش المصري واخترقه وبدأت المقدمة في التراجع إلى داخل الكمين ، وفي تلك الأثناء خرج قطز وبقية مشاة وفرسان الجيش وطوقوا كتبغا وقواته ، حيث كان المسلمون ينزلون من فوق تلال الجليل والمغول يصعدون إليها.

حين أدرك كتبغا أنه قد حوصر هجم بعنف إلى درجة أن مقدمة الجيش أزيحت جانباً . واستبسل كتبغا في القتال فاندحر جناح ميسرة الجيش ، وإن ثبت الصدر والميمنة ، عندها ألقى قطز بخوذته على الأرض ونادى بأعلى صوته "واسلاماه"

ولم يمضى بعدها وقت كبير ، فقد شق قطز ومن معه صفوف المغول ، فأصيبوا بالهلع ومات منهم الكثيرون ولاذا من لاذا بالفرار ، ونصح بعد الأمر كتبغا أن يفر من المعركة فأبى، إلى أن لقيه واحدا من المسلمين يدعى العرينان ودارت بينهما مبارزة وقع على اثرها كتبغا مجندلا في دماءه.

أعطى هذا النصر المماليك شرعية لحكم مصر والشام، ودان لهم الجميع بالولاء ، مع الإحتفاظ في الذاكرة أن أحد أسباب قيام دولة المماليك هو كراهية ما جدث في الخلافتين الأموية والعباسية من توارث للحكم وانحسار له داخل أسرة واحدة ، الأمر الذي لا يقره الشرع.

مَنْ هو جد شقراء هانم

التي بنت منزل زينب خاتون ؟

لم يكن المماليك يؤمنون بمبدأ وراثة الحكم ، وإنما كانت السلطة دائما للأمير الأقوى ، الذي يستطيع أن يحسم الصراع على السلطة لصالحه ، ويتصدى لأي محاولة للخروج عليه ، ولكن أسرة قلاوون استطاعت ان تكسر هذه القاعدة ، وتخرج عن ذلك السياق ، فقد ظل قلاوون وأولاده وأحفاده يحكمون دولة المماليك لأكثر من قرن من الزمان ، برغم كل ما تعرضوا له من مؤمرات وانقلابات، يتبعها اغتصاب للسلطة ، بيد أن هؤلاء المغتصبين لم يستقروا في الحكم طويلا إذ سرعان ما كان يتم عزلهم لتعود السلطة مرة أخرى إلى أسرة قلاوون.

وبعد وفاة السلطان قلاوون تولى ابنه الأكبر خليل قلاوون أمور السلطة ، ولكنه كان خلاف أبيه ، فقد اتسم بالحدة والغلظة ، وكان قاسيا متعجرفا في معاملة مماليكه ، مما أثار عليه النفوس وأوغر ضده الصدور ، غير أنه استطاع بشجاعته أن يطرد الصليبيين من عكا وأن يحقق حلم أبيه بوضع خاتمة للحروب الصليبية ، التي دامت قرنين من الزمان.

لكنه لم يستمتع طويلا بالنصر ، فما لبث أن تآمر عليه بعض أمراء المماليك وانتهزوا فرصة خروجه يوما للصيد فانقضوا عليه وقتلوه.

وهكذا أصبح الناصر محمد بن قلاوون سلطانا على مصر.بعد مقتل أخيـه ، فجلـس عـلى العـرش وهـو لايـزال في التاسـعة مـن عمـره في ديسمبر 1293م .

وتـم اختيـار الأمـير كتبغـا نائبـا للسـلطنة فأصـبح هـو الحـاكم الفعـلي للبلاد ، بينما لايملك السلطان الصغير من السلطة إلا اللقب الذي لم يدم له أيضا أكثر من عام . فقد استطاع كتبغا أن يقنع الخليفة العباسي بعدم أهلية الناصر للحكم لصغر سنه ، وأن البلاد في حاجة إلى رجل قوي يهابه الجند وتخشاه الرعية ، فأصدر الخليفة مرسوما بتولية كتبغا مكانه.

اقترنـت مـدة سـلطنة كتبغـا بأحـداث شـتى آثـارت ضـده الشـعب ، وجعلته يكرهه

فقـد اشـتد الغـلاء ، وارتفعـت الاسـعار ، ونقـص مـاء النيـل ، وكـثرت المجاعـات، ولـم يسـتطع السـلطان أن يتصـدى لكـل تلـك الكـوارث ، برغم الجهود التي بذلها.

وقـد أغـرى ذلـك السـلطان"لاجين" بـإنتزاع السـلطة والإسـتيلاء عـلى الحكـم ، وبعـدها اسـتدعى النـاصر محمـد وطلـب منـه السـفر إلى الكـرك. وسـعى السـلطان لاجـين إلى التقـرب مـن النـاس عـن طريـق تخفيف الضرائب كما حرص على تحسين صورته بين الرعية من خلال أعمال البر والإحسان التي قام بها فحظي بتأيد الشعب له ، خاصة بعد أن انخفضت الأسعار وعم الرخاء.

وعمد لاجين إلى إظهار تقديره للعلماء ، ونفوره من اللهو، وأحسن السيرة في الرعية . لكن عددا من الأمراء تآمروا عليه فقتلوه وهو يصلي العشاء.

أصبح الطريق خاليا أمام السلطان الناصر محمد للعودة إلى عرشه من جديد، واستقر الرأي على استدعاء الناصر فذهبت وفود من الأمراء إليه وعاد الناصر إلى مصر في موكب حافل، فلما دخل القلعة وجلس على العرش ، جدد الأمراء والأعيان البيعة له ، ولم يكن عمره يتجاوز الرابعة عشرة آنذاك.

لم يكد السلطان الناصر يتولى مقاليد الحكم حتى جاءت الأخبار بتهديد المغول لبلاد الشام ، فخرج إليهم على رأس جيشه حتى وصل إلى دمشق ولكن المغول تظاهروا بالإنسحاب وانخدع بذلك السلطان والأمراء ، فتراخى الجيش ، وخمد حماس الجنود ، ولم يشعروا إلا وقد انقض عليهم المغول ، وألحقوا بهم هزيمة منكرة ، ورجع السلطان يجر أذيال الهزيمة.

لكنه ما لبث أن أخذ يعد العدة للقاء المغول ومحو عار الهزيمة التي لحقت به. عاد المغول مرة أخرى إلى الشام فخرج إليهم السلطان بجنوده ، والتقى الجيشان بطريق مرج الصفر بعد عصر.السبت 20 ابريل لعام 1302م.

وبرغم قوة المغول وكثرة عددهم فإن انتصار الجيش المصري في ذلك اليوم كان ساحقاً، وأظهر الجنود من الشجاعة والفروسية ما يفوق كل وصف.

عـاد السـلطان في مواكـب النصرـ ، وعمـت الفرحـة أرجـاء الـبلاد وقـد أدى هذا النصر إلى تحقيق نوع من الأمن والاستقرار الداخلي للبلاد ، وأعاد إلى الدولة هيبتها وقوتها خاصة أمام الأعراب الذين دأبوا على الإغارة على المدن والقرى والقيام بعمليات السلب والنهب والقتل، دون أن يجـدوا مـن يتصـدى لهـم ، وقـد أرسـل إلـيهم السـلطان عـدة حملات، حـاصرتهم في الطـرق والجبـال ، حـتى قضـوا علـيهم وكسرـوا شوكتهم، وتخلص الناس من شرورهم.

وفي العام نفسه توج الناصر انتصاراته بهزيمة الصليبيين الذين كانوا قـد نجحـوا في الاسـتيلاء عـلى جزيـرة "أرواد" أمـام سـاحل مدينـة "طـرابلس" وأخـذوا يهـددون منهـا سـواحل الشـام ، فأرسـل السـلطان حملـة بحريـة إلى تلـك الجزيـرة ، اسـتطاعت أن تحقـق نصرـا عظيمـاً عـلى الصـليبين ، فقتلـوا مـنهم نحـو ألفـين وأسروا نحـو خمسـمائة آخرين . كما غنموا منهم مغانم كثيرة.

ولكن الأمور لم تسرـ بالسلطان الناصر على النحو الذي كان يتمناه فالبرغم من حب الشعب لسلطانه وتعلقه به ، فإن الأميرين :بيبرس الجاشـنكير ، وسـلار راحـا يضـيقان عـلى السـلطان بعـد أن اتسـع نفوذهمـا ، وقويـت شـوكتهما ، فسـعيا إلى الـتخلص منـه وحـاصراه برجالهمـا في القلعـة ، ولكـن جمـوع الشـعب خرجـت غاضـبة ثـائرة فاضطرا إلى استرضاء السلطان.

ويجـدر الإشـارة إلى أن محمـد النـاصر بـن قـلاوون هـذا هـو والـد السـلطان حسـن الـذي هـو جـد شـقراء هـانم أو مـن بنـت بيـت زينـب خـاتون، لـذا نحـن نهـتم بإيراد تسلسـل تـاريخي لعائلـة قـلاوون ، حـتى

يكون هناك معرفة بالظروف والأحوال التي بني فيها البيت وظهرت فيها أحد أقوى الطرز الإسلامية ، الطراز المملوكي.

شعر السلطان الناصر بالضيق فخرج من مصر واتجه إلى الكرك في ابريل 1309م وقرر ترك السلطة والإقامة في الكرك. وأصبح بيبرس سلطانا على البلاد ، إلا أن حركة المعارضة له أخذت تزداد يوما بعد يوم وأخذ الأمراء يلحون على السلطان الناصر بالرجوع إلى العرش. وبدأ الناصر يعد العدة لاسترداد عرشه، فلما علم بيبرس بذلك خلع نفسه من السلطنة، وأرسل كتاباً إلى الناصر يطلب منه الصفح ، وأخذ مكان استطاع أن يحمله منه خزائن الدولة ليهرب بها، لكنه فوجئ بالعامة وقد اجتمعوا عليه يريدون الفتك به ، فأخذ يلقي إليهم بما معه من أموال وينثر عليهم الذهب ، ولكن العامة تركوا ذلك كله وراحوا يطاردونه ، ففر إلى الصعيد.

وعاد الناصر ليجلس على عرشه للمرة الثالثة في مارس 1310م، وقد شهدت هذه الفترة من حكم السلطان الناصر والتي استمرت نحو 32سنة ازدهارا كبيرا في مختلف النواحي، وكانت من أزهى الفترات في تاريخ الدولة المملوكية. فقد تمتعت مصر خلالها برخاء واستقرار كبيرين، فضلا عن اتساع النفوذ الخارجي لسلطان مصر ، فقد كان هو الذي يعين أشراف مكة وامتدت سلطته إلى المدينة ، وخطب ملوك اليمن وده ، وصار اسمه يذكر في مساجد طرابلس وتونس ، واصبحت له علاقات وديه بالدول المسيحية في قلب أوروبا، كما أرسل مساعداته إلى سلطنة الهند الإسلامية ضد المغول الذين أشتدت اغارتهم على الهند.

كما شهدت البلاد في عهد الناصر نهضة حضارية وعمرانية كبيرة فقد اهـتم ببنـاء العمـائر الفخمـة فشـيد القصر الأبلـق ومسـجد القلعـة واهـتم بإنشـاء الميادين العظيمـة مثـل ميـدان النـاصر وأقـام خانقـاه للصـوفية ، وأنشـأ البسـاتين الجميلـة ، ولاتـزال تلـك المنطقـة مـن ضواحي القاهرة تسمى الخانكة حتى الآن.

واهتم الناصر بشق الترع وإقامة الجسور والقناطر، وإنشاء الخلجان ، فحفر خليجا امتد من القاهرة إلى سرياقوس مخترقا أحياء القاهرة ، وأقام عليه القناطر الكثيرة ، مثل قناطر السباع ، وأنشأ عددا من البساتين منها بستان باب اللوق ، كما أعاد حفر خليج الأسكندرية وتطهيره ليستمر فيه الماء العذب طوال العام ، ومازال هذا الخليج موجودا حتى الآن وإن تغير اسمه ليصبح ترعة المحمودية .

وفي شـهر يونيـو مـن عـام 1341م مـرض السـلطان النـاصر مرضـاً شديداً وظل يقاسي شدته وآلامه حتى توفي بعد أحد عشر يوماً عن عمر بلغ سبعة وخمسين عاماً.

وتعاقبـت الأمـور إلى أن ولي السـلطان حسـن الحكـم ، الـذي مـات مقتولا بعد أن شهدت بلاده نهضة عمرانية كان على رأسها جامع السلطان حسن درة مساجد مصر.

بتلك المباني التي شيدت من مساجد وأسبلة ووكالات ومنازل خرج إلى الوجـود طـراز مملـوكي جميـل ، لـم تمـيزه البسـاطة ولـم تمـيزه الخصوصـية لكـن ميزتـه المقرنصـات ، وهي أنصـاف وأربـاع كـرة تستخدم عـادة في الأركان وفي تحويـل الأشـكال مـن شـكل إلى آخـر ، كتحويل المربع إلى مثمن مثلا.

يضاف إلى ذلك المآذن المزدوجة الرأس ، والمشربيات المركبة . وتلك هي الحياة ، أو هكذا كانت الممالك ، كلما استتبت الأمور السياسية كلما شهدت البلاد نهضة عمرانية ، ولم يميلوا الناس إلى البسيط من الخطوط ، بل فننوا وعقدوا في الأشكال ، وشاهدي على ذلك العمارة الأندلسية وقصر الحمراء.

ومن عجيب الصدف أن النهضة العمرانية أيام المماليك كانت على عهد الناصر محمد بن قلاوون ونهضة الأندلس كانت أيام محمد الناصر سيد قرطبة وأشبيلية وسراقسطة.

إن العمارة هي الأداة التي يسطر بها كل سلطان أو ملك أو رئيس أمجاده و إنجازاته ، وهي أسرع الطرق أيضاً ، إذا ما قورنت بنهضة تعليمية أو نهضة اقتصادية .

الجارية .. زينب خاتون

زينب خاتون هي واحدة من خادمات محمد بك الألفي ، أعتقها الألفي بك فتحررت زينب ، بل وتزوجت الشريف حمزة الخربوطلي، ولأن زينب تزوجت أميرا فقد أصبحت أميرة مثله، بل وأضيف لقباً إلى اسمها وهو خاتون أي المرأة الشريفة الجليلة . لذا أصبح اسمها زينب خاتون. اشترى لها زوجها منزل شقراء هانم حفيدة السلطان الناصر حسن بن قلاوون وسمي المنزل باسمها منزل زينب خاتون، وكانت آخر من سكن البيت قبل أن يضم إلى وزارة الأوقاف المصرية ، والتي قامت بتأجيره للعديد من الشخصيات ،كان آخرهم قائد عسكري بريطاني إبان فترة الإحتلال البريطاني على مصر.

رغم ما يشاع من أن المرأة في العصرين المملوكي والعثماني عزلت وراء المشربيات واقتصر دورها في إطار عالم الجواري والحريم . لكن زينب خاتون أثبتت عكس ذلك ، ففي سنة 1798م جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر وبدأ نضال المصريين ضد الإحتلال الأجنبي. وشاركت زينب خاتون في هذا النضال فكانت تؤوي الفدائيين والجرحي إلى بيتها هربا من الفرنسيين. وقد عثر في بيتها على 27 جثة مدفونة في قبو البيت. وإذا كانت قصة زينب خاتون تكشف لنا ملمحا مهما عن حياة هذه السيدة فإن البيت نفسه وما يشتمل عليه من قاعات وأنماط هندسية يكشف لنا عن سمات العمارة المملوكية وما تحمله من رؤية

بيت زينب خاتون

إن عدد المباني المملوكية يقدر في القاهرة فقط ب 136 مبنى ، بين مـدارس وبيـوت ومسـاجد وحمامـات وخانـات وأسـبلة ووكـالات ومستشـفيات وغيرهـا. وقـد علمنـا ممـا تقـدم أن أهـم مميزات عصرـ دولة المماليك التي حكمت مصر والشام والحجاز طوال ثلاث قرون مـن بعـد إنتهـاء الدولـة الأيوبيـة في 648هـ/1250م إلى بدايـة الحكم العثماني بالمنشأت عامة وبالمنازل المنبثقة عن قيم إسلامية ضاربة الجذور خاصة، تلك المنازل تميزت بطراز فريد حمل ملامح عصرـ جديد يحاول أن يتشبث بالمعالم الإسلامية وينقض عملية التوريث التي وجدت في العصور التي سبقتها.

وترجـع السـيدة عليـاء عكاشـة تلـك العقيـدة ، عقيـدة نبـذ التوريـث وإقامة حكم إسلامي عادل إلى التربية العسكرية التي شهدها هؤلاء ، فتقـول عـن أصـل المماليـك أنهـم مجموعـة مـن العبيـد اشـتراهم الأيوبيـون من بلاد الترك وأسـيا الوسـطى بغـرض تجنيدهم وضـمهم للجـيش الأيـوبي ، ولهـذا تـربى المماليـك تربيـة عسـكرية معزولـة فأصبحوا جنـودا أقويـاء ورجـالا شـجعان صـدوا الخطـر المغـولي عـن مصر والشام.

وكما تقدم أيضا فإن عصر المماليك قد انقسم إلى قسمين :

- عصر المماليك البحرية وحكموا من 1250م-1382م وكان أشهر سلاطينهم السلطان محمد بن قلاوون وركن الدين بيبرس

- وعصر المماليك الجراكسة وحكموا من 1382م-1517م وكان عدد سلاطينهم 23 سلطانا منهم المؤيد شيخ والظاهر برقوق والأشرف برسباي ، وكان آخر سلاطينهم طومان باي.

تميز عصر المماليك بأنه عصر البناء حيث تركوا ثروة معمارية كبيرة لم يتركها أي من العصور الإسلامية الأخرى.

تعتبر البيوت الإسلامية نموذجا مميزا وعلامة فارقة في العمارة الإسلامية ، وذلك وفق كلام عكاشة التي تقول"رغم كونها عمارة غير دينية إلا أنها معمار ينبع من العادات والتقاليد الإسلامية ، فقد حرص المهندس المسلم على تخطيط المنزل بما يناسب حرمة بيت المسلم ، فصمم مدخله حيث يستطيع من في الداخل أن يرى من في الخارج وليس العكس ، كما احتوى البيت على صحن تطل عليه غرف المنزل من خلال طراز خاص من الشبابيك المصنوعة من الخشب المفرغ "مشربيات" ، وقد صممت هكذا حتى لايتمكن زوار البيت من رؤية خصوصية البيت المسلم.

كذلك كان المدخل المنكسر أحد علامات العمارة المملوكية ، وهو ليس إلا فراغ يفصل بين صحن المسجد والعالم الخارجي.

وقفة مع المشربية

اعتاد الناس في الحديث عن المشربية أنها فلتر رؤية ، تحفظ للبيت المسلم حرمته ، وأغرق الناس بعد ذلك في الحديث حول وضع المرأة في ذلك العصر ، وأنها كانت لا ترى ولا تشارك في المجتمع. الأمر الذي جعل العديدمن هيئات الإستشراق وحقوق الإنسان تقدم على الخوض والنزول إلى تلك المنطقة.

مع أن المرأة كانت منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى جوار الرجل كتفاً إلى كتف. وشاهدناها في العديد من المعارك وساحات القتال.

وأرى أن لفظ المشربية يحمل الجواب في داخله ، فالمشربية معناها مكان الشرب "الثلاجة" ، أو قل إن شئت المكان الذي يكون فيه الماء بارداً. معنى هذا أن المشربية صممت أول ما صممت لإيجاد مكان مظلل ويدخل منه في ذات الوقت تيار من الهواء البارد ، الذي يمر على قلال الماء فيبردها. هذا الكلام يتسق ويتناسب مع مشاركة المرأة في الحياة الإجتماعية آنذاك.

وهو لا يمنع أيضا أن تضاف إليه بعد ذلك وظيفة ستر العورات أو حجب الحريم عن أعين السارقين. كل تلك الوظائف تأتي لاحقة لوظيفة تبريد الماء.

وجد أيضا داخل عمارة المماليك ماسمي بالمقعد وهو عبارة عن شرفة مطلة على الفناء الداخلي للصحن ، وعادة ما تستخدم من أهل البيت صيفاً.

ووجد أيضا مفرد جديد من مفردات العمارة وهو ماسمي بالملقف ، وهو عبارة عن سقف مائل يوضع بإتجاه الرياح السائدة ويعمل على إدخال الهواء إلى الفراغ الداخلي ، ثم يتم تقليل درجة حرارة الهواء الداخل عن طريق مسطح مائي أو مجموعة من الخيش المبلل ، ودون هذه المعالجات التي كانت تتم لتقليل درجة الهواء في ذلك الحين ما كانوا يصلون إلى الراحة الحرارية في الفراغ الداخلي.

وأحب أن ألفت النظر أنهم ما كانوا يصلون إلى تلك الراحة الحرارية ، التي لا نحتاج معها إلى Aircondition بسبب الملقف ولكن بسبب سماكة الجدران التي كانت تصل في بعد الأحيان إلى المتر ، فضلا عن أن معاملات توصيل الأحجار المستخدمة آنذاك كانت ضئيلة.

لقد كانت عمارة المماليك وحشاً كاسراً وعلامة فارقة في العمارة الإسلامية ، شأنها شأن الطراز الأندلسي في المغرب. وما من شك أنها أثرَّت أثرت العمارة الإسلامية ، ومصر وحدها كنز زاخر بتلك المفردات النادرة.

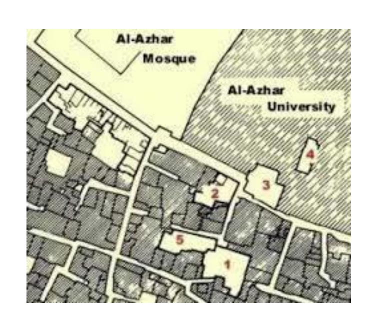
القيم المعمارية التي حققها منزل زينب خاتون

يشكل منزل زينب خاتون المقام في مدينة القاهرة انعكاسا واقعيا وفكريا لسكان المنطقة في الفترة التي بني فيها ويعكس هذا المبنى طبيعة الحياة الاجتماعية لسكان القاهرة في تلك الأيام ، والتي كانت منبثقة من قيم هذا الدين الحنيف.

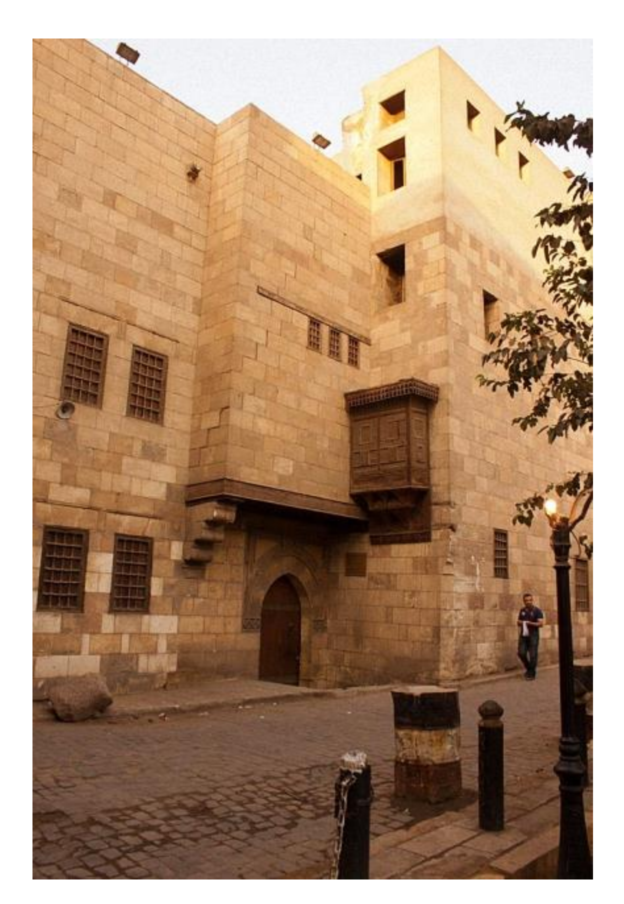
كما أن التناغم المعماري مع الفكر الإسلامي السائد الذي حققه هذا المبنى يتضح من خلال انسجامه مع المباني المجاورة من حيث الإرتفاع والإلتصاق ومواد البناء وألوانها ومصادرها المحلية ، وكذلك من حيث تكوين النسيج المعماري المتلاحم في المجاورة الواحدة.

ولم يكن هذا المبنى وحده في زمانه أومكانه، بل ينطبق هذا الإنسجام على الغالبية العظمى من المبانى في المساكن التي أقيمت في تلك الفترة كمنزل جمال الدين الذهبي ومنزل السحيمي ومنزل الكريدلية ومسكن آمنة بنت سالم وغيرها الكثير.





ونستطيع القول أنه جمع بين عنصرين هامين هما البساطة والوظيفية ، يتضح هذا من عدم وجود زخارف أو أي إضافات في المبنى لا وظيفة لها، بالإضافة إلى أن مسطحات المبنى تناسب الوظيفة المعدة لها.



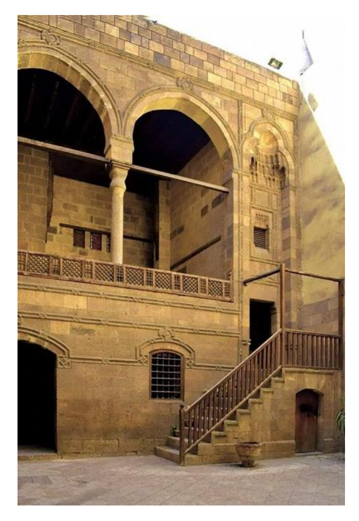
<u>محلية الخامات ومواد البناء</u>

قبل ستمائة عام من ذاك الوقت لم يكن هناك حديد، وقد صمم المبنى بكل مكوناته على أن يكون من المواد المحلية فالأحجار

بسمكها العريض في الأدوار السفلية والأجر في الأدوار العليا والخشب سقفا للفراغات المختلفة.

وهنا وقفة لابد منها ، لقد استطاع المصريون قديما في عهد المماليك ، وقبلها في عهود الأسر الفرعونية المختلفة، ان يلفتوا أنظار العالم لهم فيما ينتجون من أعمال معمارية فائقة الجودة وبالأعتماد على موادهم المحلية فقط.

وبديهي جدا أن نعلم أنه ليست أفضل التصميمات بأستخدام أحدث المواد المكتشفة ، بل على العكس من ذلك ، لأن الهندسة فن الممكن ، فن أن تجيد استخدام مواردك الطبيعية وهكذا كان الفراعنة ومن بعدهم المماليك .





المنزل متناغم بيئياً

سبق وأن أوردنا في معرض الحديث عن الملقف ، أنه ليس وحده المسئول عن درجة الحرارة المتدنية في داخل المبنى ، بل إن

المسئول الأكبر هو سماكة الجدران التي تمنع من تسرب الحرارة إلى الداخل. وقد تمتع هذا المبنى بجدران يصل عرضها في طابقها الأرضي لأكثر من متر.

المنزل يحترم الخصوصية

ضم هذا المنزل كافة الأنشطة الإنسانية المطلوبة وتوزعت هذه تلك الأنشطة حول الفناء الداخلي للمنزل ، وجاء الدور الأرضي ليشكل منظومة الفراغات شبه العامة ، فاشتمل على قاعة لإستقبال الزوار وخدماتهم ، كما اشتمل الدور الأرضي على منظومة فراغات الخدمات، والمتمثلة في الإصطبل ، وإيوان الضيوف من الرجال والمطبخ والفناء الصغير الملاصق له ، وعدد من المستودعات والطاحونة وممرات الخدمة. إضافة إلى محور النشاطات جميعها وهو الفناء.



أما الدور الأول فقد تشكل من فراغات الإستقبال الخاصة بالنساء ، وهي منظومة النشاطات شبه الخاصة بجلوس العائلات صيفاً أو شتاءً ، ويتشكل فراغ الإستقبال من مقعد وقاعتين وإيوانين ، إضافة إلى الشرفات والإيوانات المطلة على الفناء.

أما الدور الثاني فقد شكل المنظومة الخاصة أو الفراغات الخاصة ، وهي فراغات النوم والمعيشة والشرفات التي تطل على الفناء الداخلي للمسكن.

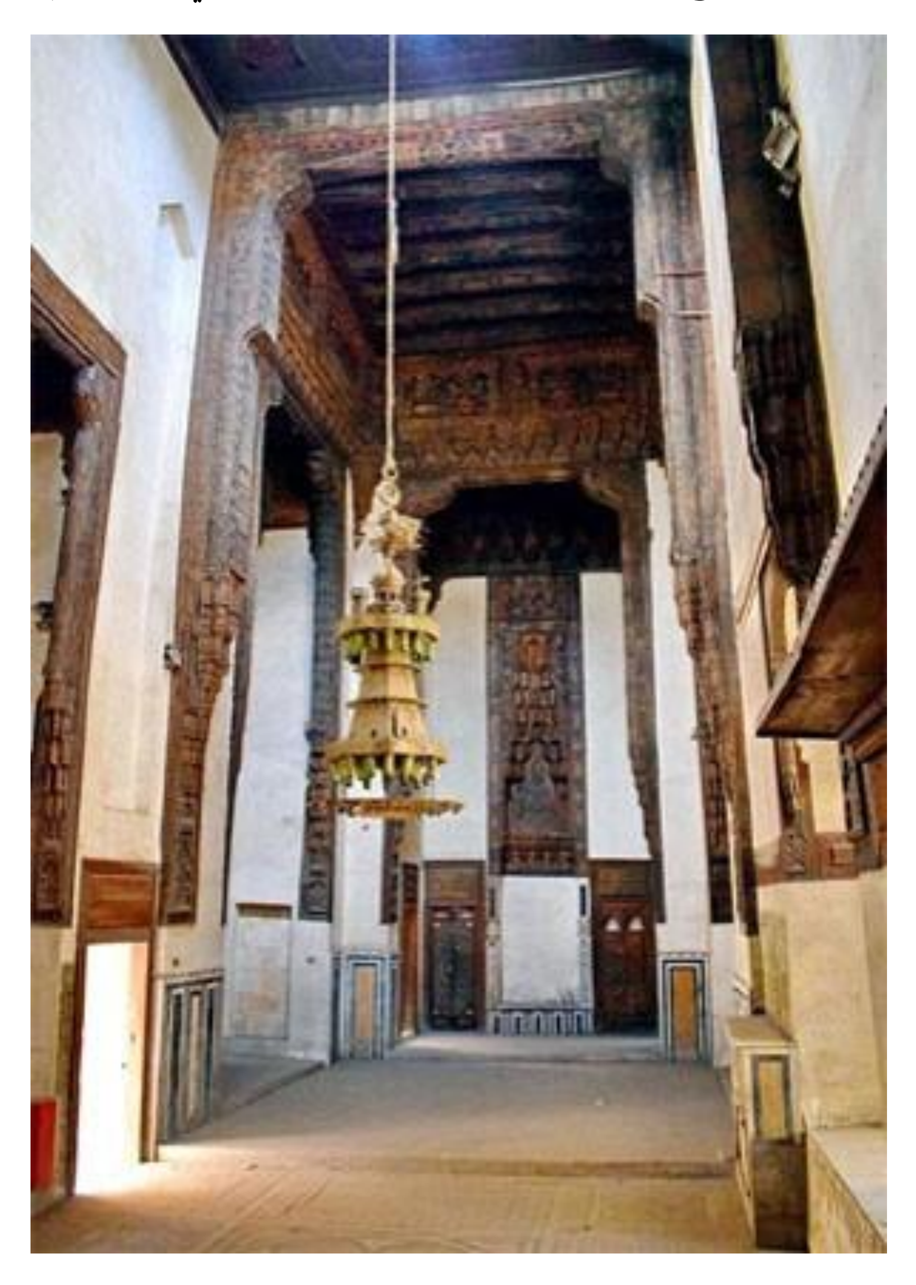
ويلاحظ من ترتيب الوظائف حول محور الفناء الداخلي بتلك الصورة احترام المصمم للخصوصية وفصل الوظائف بعضها عن بعض ، ولايعني هذا بحال من الأحوال أن المرأة كانت لا ترى في تلك العصور. ولكن وجود فراغ خاص مثل الحرملك يعني امكانية تخفف المرأة من بعض ثيابها ، وتباسطها في الحديث مع قريناتها من بني جنسها.

إننا حتى في عالم اليوم إذا ما ذهبنا في زيارة عائلية ، تجد أنه بعد السلام والتحايا أن النساء يأخذون بعضهم وينزوون في ركن من أركان البيت والرجال كذلك .

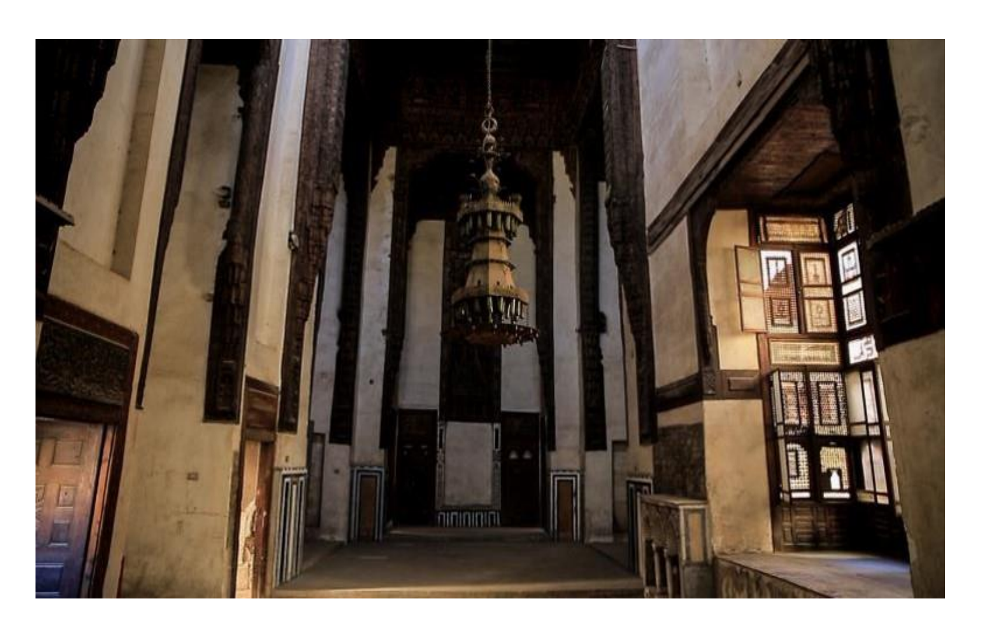
المقرنصات الخشبية

سبق وأن ذكرنا أن بلاطات المبنى خشبية الهيكل ، فلم تكن ال Slab-Flat موجودة في ذلك الحين. لكن لأن البيت لحفيدة

السلطان شقراء هانم ، كان لابد من بعض الزينة. وانتقض كثير من المعماريين إرتفاع المقعد الذي يصل إلى 14 متر ، لكني أراه صمم

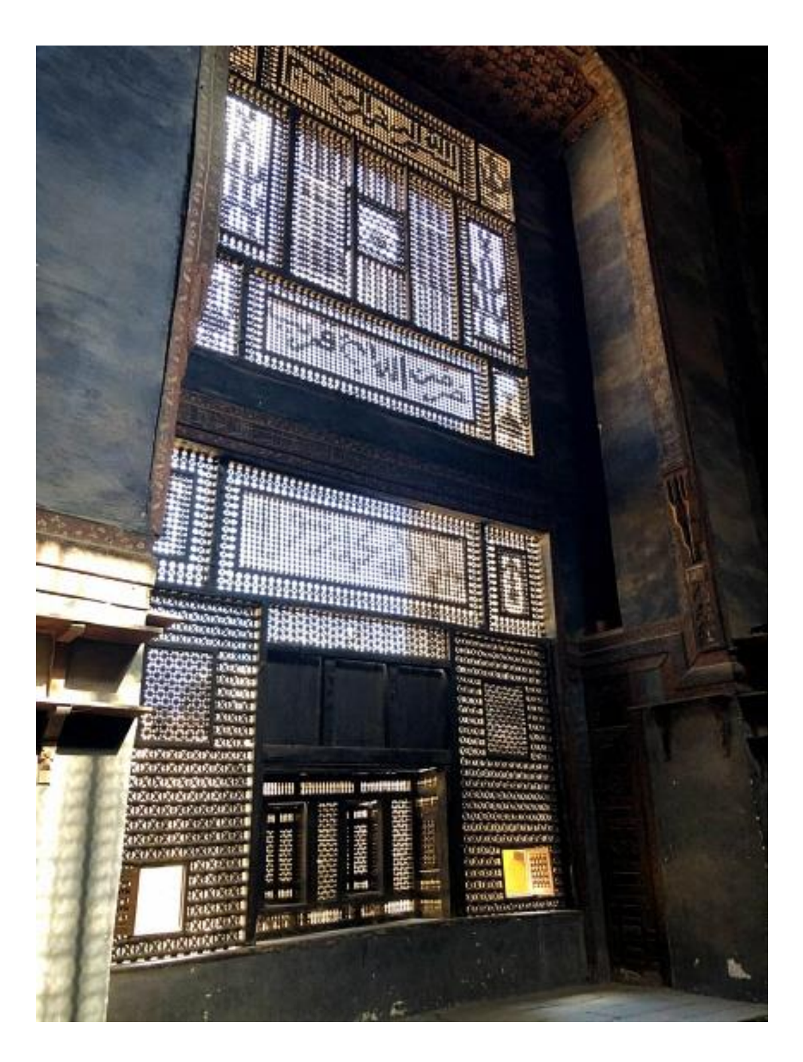


كذلك لأسباب حرارية ولكي يوحي بالرهبة لزائر المكان ، والرهبة واجبة في منزل حفيدة السلطان حسن ، أو قل إن شئت بنت السلطان.



الإضاءة والتهوية

إضافة إلى الخصوصية فقد استطاع مصمم منزل زينب خاتون أن يحقق بعداً آخر وهو تهيئة المنزل ليكون مناخا مناسبا للتواصل والحوار. وتعتبر سعة المنزل المناسبة أولى تلك الوسائل في تفعيل التواصل ، وذلك حيث أن السعة المناسبة تمكن مستخدم المنزل من التواصل والحوار باستقلالية وطمأنينة. كما أن توفير الإضاءة الكافية والتهوية المناسبة تضيف إلى سعة المنزل جزءً هاماً من متطلبات السكنة. وقد استطاع مصمم المنزل أن يوفر ذلك من خلال الإطلالة على الفناء الداخلي ، واستطاع أن يتحكم في الضوء وكميته من خلال استخدامه للمشربيات.



الإحتواء والسكينة

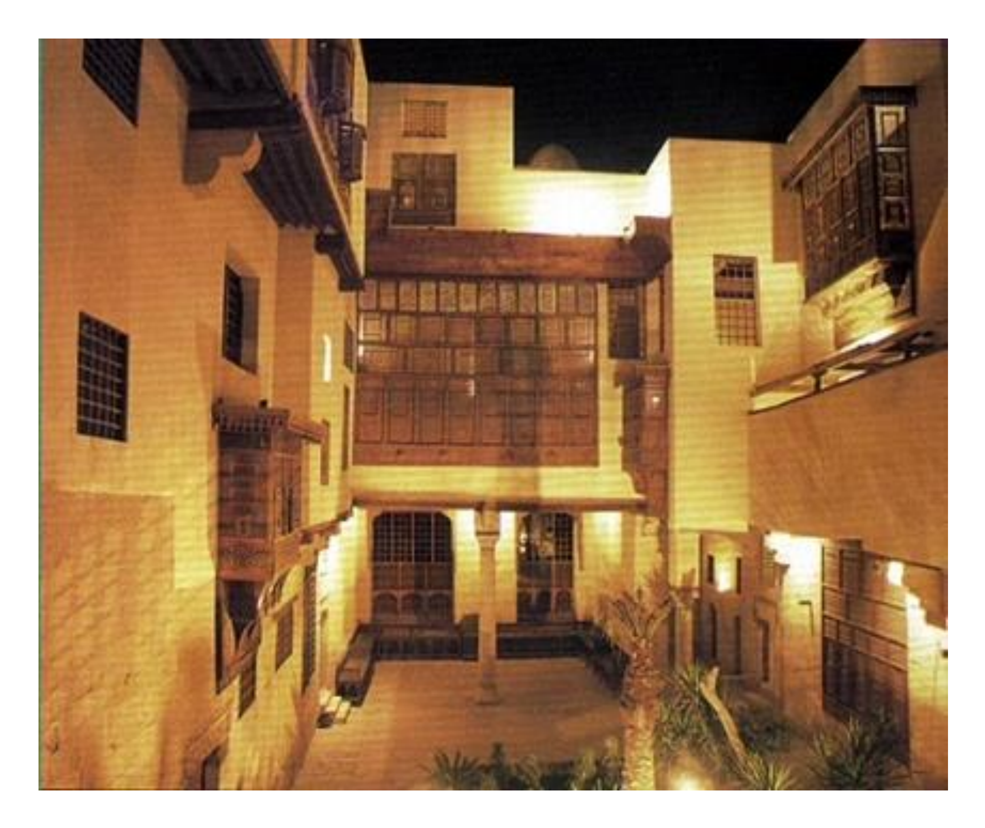
حقق هذا المبنى معنى الإحتواء ، وفي الحقيقة جميع منازل تلك الحقبة ، أو جميع منازل العمارة الإسلامية. إذ أنها تقوم على تلاصق الجدران مع الجار ، الأمر الذي يؤدي إلى الطمانينة ، وكذلك تساوي الإرتفاعات مع الجار ، فلا تعدي عليه. بل إن الجار في تلك المجتمعات أقرب من القريب ذو صلة الدم ، لأن الجار هو الذي

سيجده إذا ما دهاه مكروه . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه.

كذلك يتأتى معنى الإحتواء بإطلالة جميع الفراغات على فناء واحد ، هذا الفناء محجوب ومحكوم عن الغرباء عن طريق المدخل المنكسر .

ولايزال هذا المدخل المنكسر ، والذي وجد في التصميمات الإسلامية يستخدم في العديد من المنشأت العامة والخاصة في الغرب، ولايعرف المصممون أن منشأه إسلامياً، أو يعرفون ويعتبرون ذلك أمراً عادياً.





<u>العنصر الجمالي</u>

حقق هذا المبنى إبداعات جمالية لم تتعارض مع مبدأ الإعتدال في الإنفاق ، وقد كان ذلك من خلال الإطلالات الخشبية على الفناء ، والنباتـات الداخليـة الموجـودة في الفنـاء. كـذلك مـن خـلال بعـض الأرضـيات الرخامية الموجـودة في الإيوانـات المختلفـة ، وأخـيرا مـن خلال أعمال الخشب الموجودة في الأسقف.

خاتون في ثوب جديد

جمعني القدر بأستاذ فاضل هو الأستاذ الدكتور مختار صديق أستاذ مادة الSteel بجامعة القاهرة وصاحب مكتب استشارات مصر- Misr Consult من خلال أربع مشاريع ، كلها في الآثار ، وكان أحد تلك المشاريع منزل زينب خاتون. زرنا المكان سويا وكان هناك فريق كامل يعمل على رفع وتوثيق المكان ، وكنت أنا الإستشاري المعماري للمشروع ، وكان الدكتور مختار صديق هو الإستشاري العام.

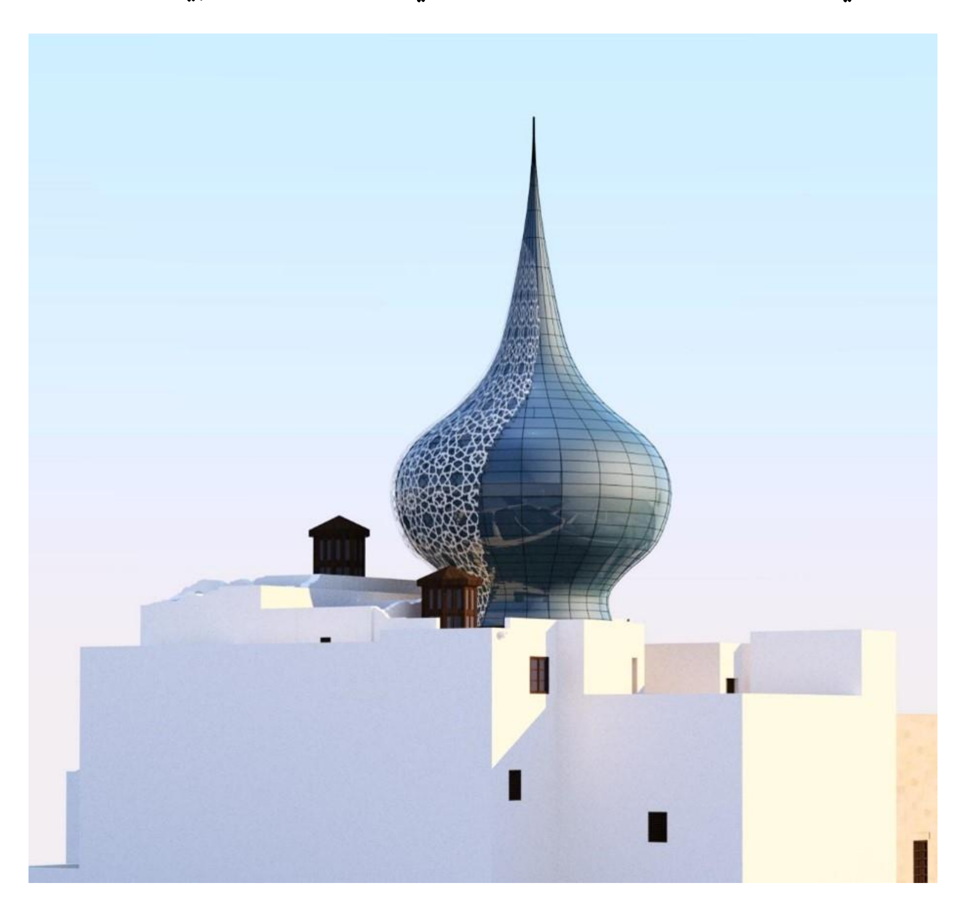
درت في أرجاء المكان وأنا أبحث عن الفكرة المعمارية التي تليق بهذا الأثر الجميل ، لم أكن أهتم بالشرح الذي يقال أو الحوار الدائر بين أطراف الفريق ، لكني كنت في عالم آخر ، ولم يكن لدي أي فكرة تخدم هدفي النبيل.

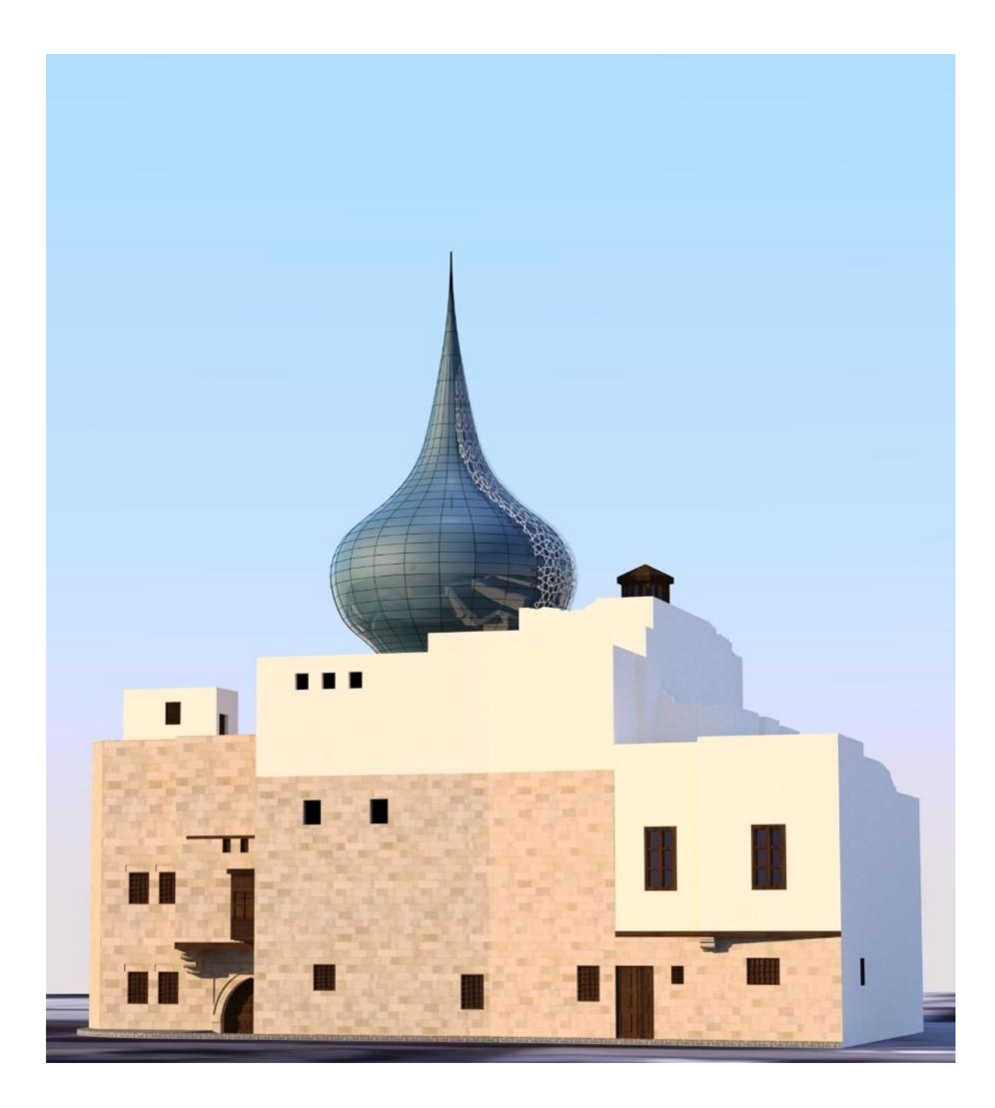
أصابتي الدهشة من المقرنصات الخشبية ، وزاد من دهشتي حجم المشربية ، لكن لا شيء في ذهني ، إلى أن صعدت إلى سطح المبنى ورأيت مآذن الأزهر ومعالم القاهرة الفاطمية.

<u>عندها قررت إيجاد مطل على هذه المعالم، إنها معالم قاهرة المعز، التي قهرت الصليبين والمغول ، وحفظت الإسلام من خلال فكر وسطي أزهر. قد يكون هذا المطل من خلال مقهى خمس نجوم أو مطعم فاخر يتمتع الناس فيه بالجلوس في مكان هادئ وكذلك برؤية معالم القاهرة الفاطمية. ولكن حتى يستطيع الزائر أن يرى</u>

لابد أن يكون هذا الفراغ فراغاً شفافاً ، لكن كيف للفراغ أن يكون شفافا وشمس القاهرة حارقة؟

معنى هذا أن الفراغ أو القبة إن شئت ينبغي أن تكون شفافة كي نستطيع رؤية معالم القاهرة الفاطمية ، ولكن ماذا نفعل مع الأحمال الحرارية المتزايدة بسبب شفافية الغلاف؟ وهنا يأتي الجواب الشافي أن شمس الجنوب هي التي ينبغي إتقائها لذا نضع غلافاً من المشربية المعدن يقلل دخول أشعة الشمس إلى الفراغ الداخلي جهة الجنوب والجنوب الشرقي والجنوب الغربي



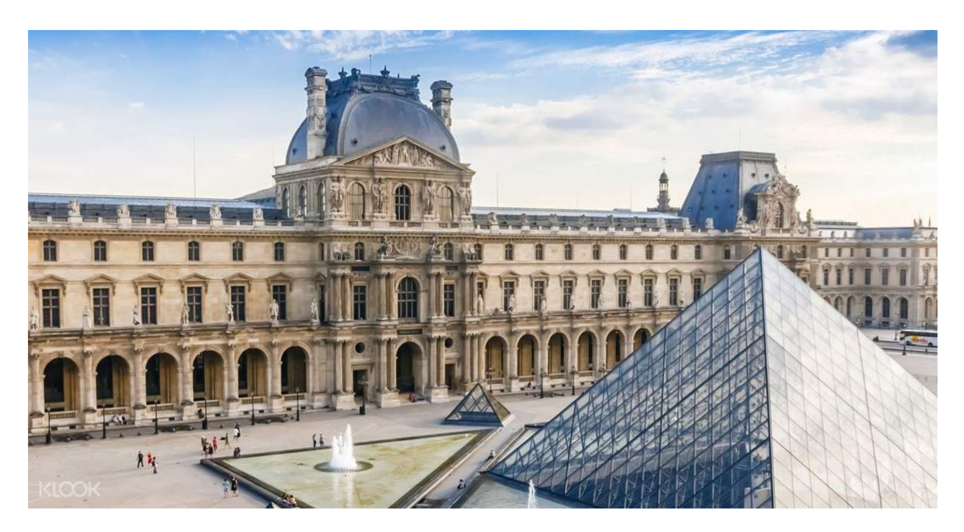


وقد تم إختيار الشكل البصلي تذكيرا بعهد المماليك ، الزمن الذي شيد فيه هذا المنزل ، وكأننا نقول إن هذا هو ال Post-modern لقبة السلطان قانصوة أبوسعيد أو قبة مسجد الظاهر بيبرس.

غير أنه هناك إعتبار أهم ، وهو أن المعماريين عندما يتعاملون مع مبنى أثري فإنهم يلجأون إلى إستخدام الزجاج كعنصر محايد في أي إضافة يتقدمون بها ، بشرط أن يكون الزجاج زجاج فقط بدون

frame (إطار) حتى تنعدم شخصيته ويظهر وكأنه مرآة تعكس ما حولها.

إنظر إلى المعماري الرائع I.M.Pei حين تعامل مع متحف اللوفر وبنى مدخله الرئيسي. على شكل هرم زجاجي يتوسط مبنى المتحف الرئيسي. وإنظر كذلك إلى البرلمان الألماني وقبته الشهيرة والتي صممها العبقري نورمن فوستر.





تلك أمانة شديدة في التعامل مع الآثار ، فلو أننا تخيلنا أن الجسم المضاف إلى الآثر هو جسم مصمت غير شفاف لما عرف زائر المكان أن هذا الجسم جسم أضيف إلى الآثر ، لكن بهذه الصورة في التعامل يظهر الجسم الأصلي ويظهر جسم جديد ، قد أضيف لاحقا.غير أننا بعد إستقرارنا على إقتراح قبة شفافة تضاف إلى منزل زينب خاتون لم نقدم شكلا واحداً للقبة ، ولكن قدمنا إقتراحين. الإقتراح الأول هو القبة السابقة ، والإقتراح الثاني قبة مفككة Deconstruction ، ونحن بهذا نتماشي ونتناغم مع لغة وأدوات العصر.



القبة تـم تجزيئهـا إلى ثمانيـة أجـزاء ، وتـم التعامـل مـع كل جـزء علـى حدة من حيث الحجم والإرتفاع ، وتم عمل نظام إنشائي لكل جزء مكـون مـن Girderعلـى شـكل Truss بالإضـافة إلـى Secondry beam علـى شـكل I-Beam وتـم عمـل تـراس جهـة الأزهـر ومعـالم القاهرة القديمة.



وذلك لإتاحة الفرصة خلال فصل الشتاء للجلوس في الهواء الطلق. وهنا ينبغي التنبيه إلى أن هذا المقهى المكون من طابقين يقتضي. منا إغلاق الفناء الداخلي وإستبدال فتحة الفناء الداخلي المعدة لتهوية المبنى بشبابيك جانبية يراها القارئ أسفل.

وهنا يأتي سؤال هل فتحة الفناء أفضل أم الشبابيك الجانبية ؟ ويختلف الناس في التقيم ، لكن نعلم أن هواء القاهرة حامل للكثير من الغبار، لذلك ربما نتعاطف مع إغلاق الفتحة. صحيح أن الإضاءة الطبيعية ستقل ولكن أيهما أكثر أهمية ، منع الغبار أم توفير إستخدام الطاقة الكهربية للإضاءة والإعتماد على الإضاءة الطبيعية. وقد خضنا معارك كبيرة مع الجهات المسئولة من أجل إضافة هذه القبة.



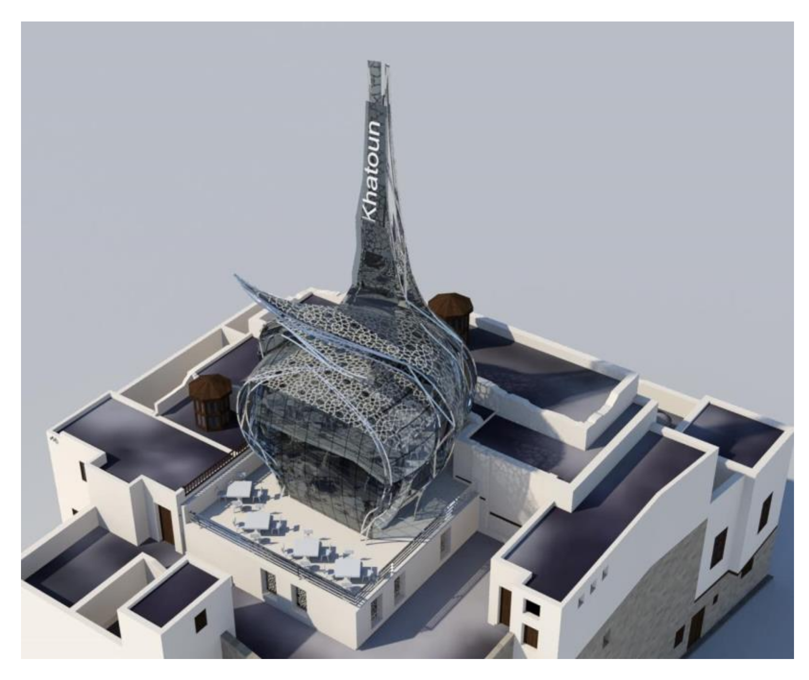


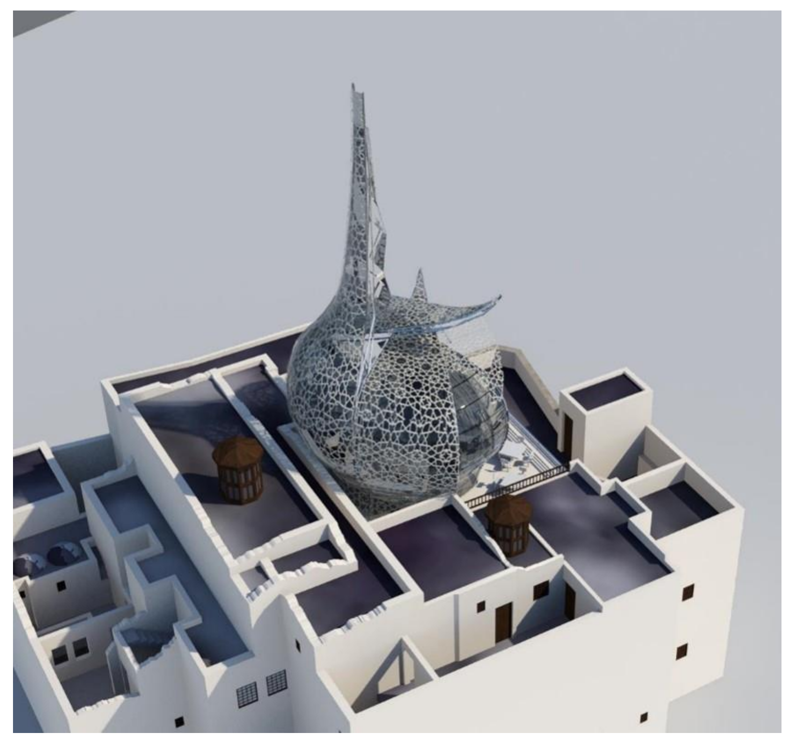
فقد قيل لي بعد الإنتهاء من المحاضرة العرض الذي كان ممتعاً ، أنت لا تستطيع وغير مسموح لك إضافة أي شيئ إلى المنزل ، إنه آثر.

بمعنى أنه مقيد في دفاترنا بعدد غرفه وأبوابه وشبابيك حتى بلاطه ، فلا يجوز لك بحال من الأحوار التغير في أوصافه ، فقلت ياسيدتي أنا معماري ولست نقاش حتى يكون واجبي تنظيف الجدران والأسقف وترك المبنى على حالته القديمة. فقالت هذا بالإضافة إلى أن المنطقة لايوجد بها غاز طبيعي، القبة مرفوضة بكل الأحوال. فقلت لها شكلها لا يعجبك ، قالت لا هي جميلة ، فقلت فهل الغرب يتعامل مع الآثار كما نتعامل نحن ، ألم يضيف Pei الهرم إلى جسم اللوفر ، ألم يضف فوستر القبة إلى جسم البرلمان ، ياسيدتي القبة

ليست جميلة القبة landmarkوهنا صمت الجميع وانصرفنا ، وإذ بالدكتور مختار ونحن في المصعد يهدأ من روعي ويقول لي لاتحزن إن رفضت القبة ، قلت له أنا لست حزين لأننا قدمنا إقتراح جيد. وإذا بالدكتور مختار يخاطبهم من مكتبه وأنا لا أعلم ويطلب منهم إعادة مناقشة القبة.




Khatoun

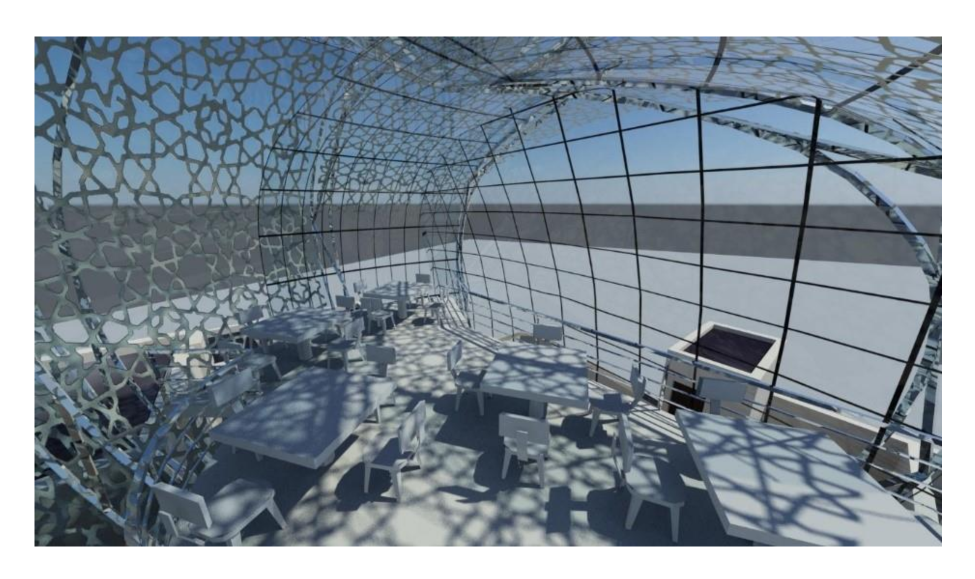


بالتأكيد كان يشعر دكتور مختار أن القبة فعلا جميلة ، لقد كنت أقول لطلابي من خلال محاضراتي إن حب المعماري لبلده هو بزرع وبناء كتل جيده تسترعي الإنتباه في شتى أرجاء وطنه.

ودعيت إلى الإجتماع الثاني وذهبنا بسيارة دكتور مختار، وإذ بمسئولي وزارة الآثار يقولون لقد وافقنا على القبة ، ولكن الإقتراح الأول وليس الإقتراح الثاني ، وابتسمت ونظر بعضنا إلى بعض ، فهمست في اذن من في جانبي "خير وبركة"

المقهى سيتسع لخمسين فردا من الداخل ولكن على مستويين. وبدأنا العمل في تفاصيل القبة من حيث الهيكل الإنشائي وأحمال التبريد والتكيف ، وكان فريق المكتب على أكمل وجه ، يتحدث المهندس الإنشائي حين يحين وقته ويتحدث استشاري التكيف حين يحين وقته كذلك.





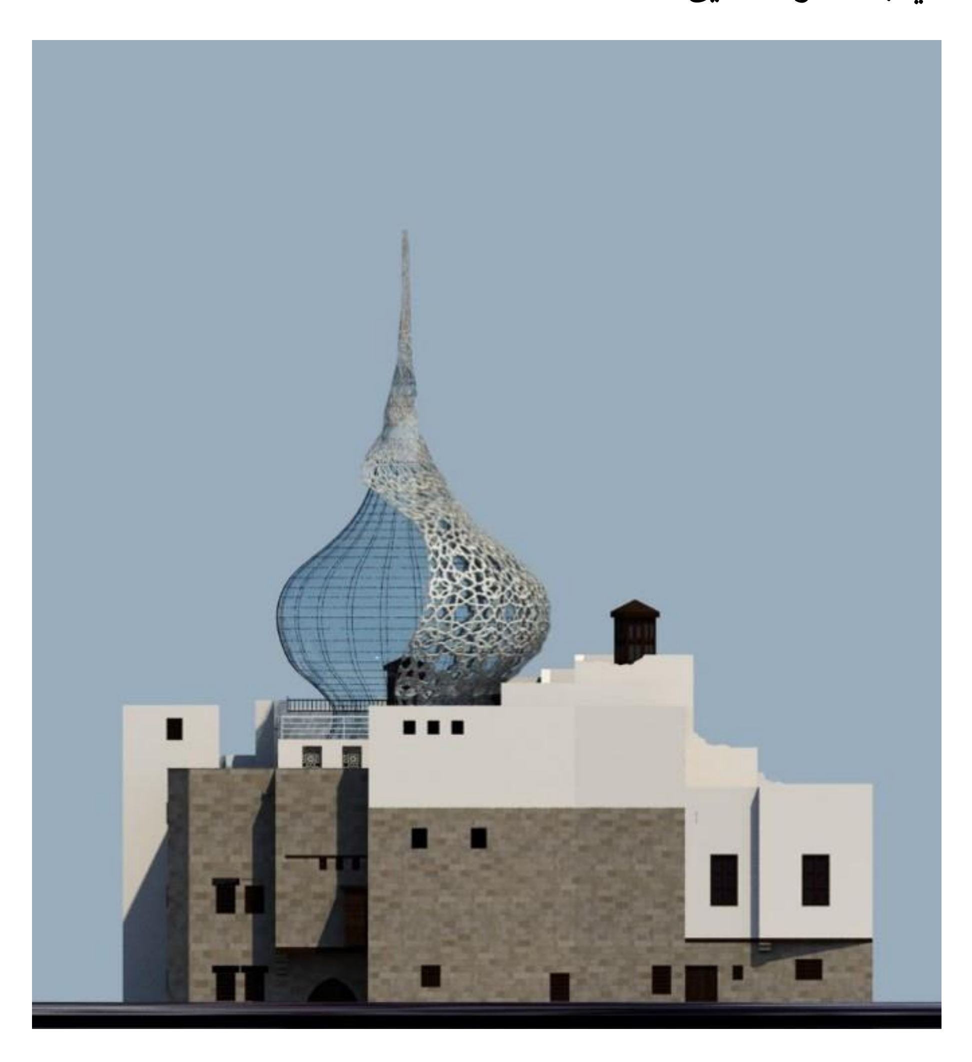
وكنت أترك الحديث للمهندسة مروة التي كانت تحفظ القبة أكثر مني ، حين يكون هناك حديث يخص الجانب المعماري. وهذا أمر يدخل السرور على قلبي أن تضع فكرة وتجد الكثير يتحمس لها، سواء من الفريق المعماري أم الإنشائي أم مسئولي التبريد والتكييف.

ومن لطائف القدر أن قال لنا أحد مسئولي الوزارة ، أثناء تلك الإجتماعات، إننا بموافقتنا هذه نمنح مكتبكم Credit "ميزة" ، قلت سبحان الله إذا أنتم تعلمون كم أضافت القبة لمنزل خاتون.

لقد صممنا قبة جميلة في حب مصر.وحب العمارة ، وكانت فرصة جميلة لي أن أتعامل مع شخصية فاضلة هي شخص الأستاذ الدكتور مختار صديق. وقد كان لفريق الوزارة بعض الطلبات على الشكل الأول من القبة . وقمت بتلبة تلك الطلبات وظهرت القبة في شكلها النهائي أسفل. التعديل كان يخص المشربية أن تصل إلى آخر نقطة في القبة والتي هي على إرتفاع 17 متراً . الأمر الثاني أن يتم ترحيل غشاء المشربية

المعدني كلما إتجهنا إلى قاع القبة بحيث يصل إلى مسافة تتراوح بين 80 سنتيمتر وواحد متر . وأن يتم عمل سقالات معدنية ثابتة بين الواجهة الزجاجية والإطار المعدني للمشربية لكي تستخدم لاحقا في تنظيف وصيانة الزجاج . وقد كان.

بهذا ننهي الحديث عن القبة ، التي أضافت بفضل الله إلى منزل زينب خاتون الشيئ الكثير.



كلمة حول المشربية المعدنية

القباب في عصر المماليك تميزت بظهور النقوش عليها من الخارج ، أو استبدال النقوش ببروز طولي مقوس يظهر على سطح القبة، كما هـو الحال في العديد من القباب مثل قبة مسجد الظاهر بيبرس أو قبة ضريح السلطان قانصوة أبوسعيد.

وفضلا عن أن القبة لا تخص المسلمين وحدهم ، فهي موجودة في الكنائس كما هي في المساجد ، إلا أن وجه الشبه بين المشربية المعدنية وقباب المماليك كبير.

وحتى نكون متفقين فالقبة لم تكن يوماً من الأيام طرازاً إسلامياً ولا طرازاً مسيحياً ، إنما هي اسلوب إنشائي للتغطية ، وجد قبل أن يوجد ال Flat-slab أو حتى الخرسانة المسلحة. القبة أو القبو اسلوب لتغطية فراغ ما.

أما ما يميز قبتنا هذه أن القبة بها تغطية فقط في الجزء الضار للأشعة الشمسية. فالشمس جزء من أشعتها مبعثر في الفضاء وهو يمثل ربع الإشعاع الشمسي تقريباً ، أما البقية فله زاوية ميل تختلف بإختلاف السنة.

أنا أدرس مادة ال Solar Energy في الجامعة وفي الفصل الأول من هذا المقرر أعلم الطلاب كيف يحسبون زوايا ميل الشمس وكيف يصممون الكاسرات الشمسية ، بناء على تلك الحسابات ، وكثيرا ما

قلت لطلابي لآتوجد واجهة في مبنى ما في مصر.حسب لها زوايا ميل الشمس ، وصممت كاسراتها على أساس علمي.

أما هذه القبة فقد صممت على أساس علمي.

كنت أقول لهم قد توجد الكاسرة رأسية فقط أو أفقية فقط أو تكون إحدى الكاسرات أكبر من الأخرى أو تكون جميعا متساوية ، فمن الذي يحدد كل هذا ؟

الذي يحدد كل هذا الحسابات.

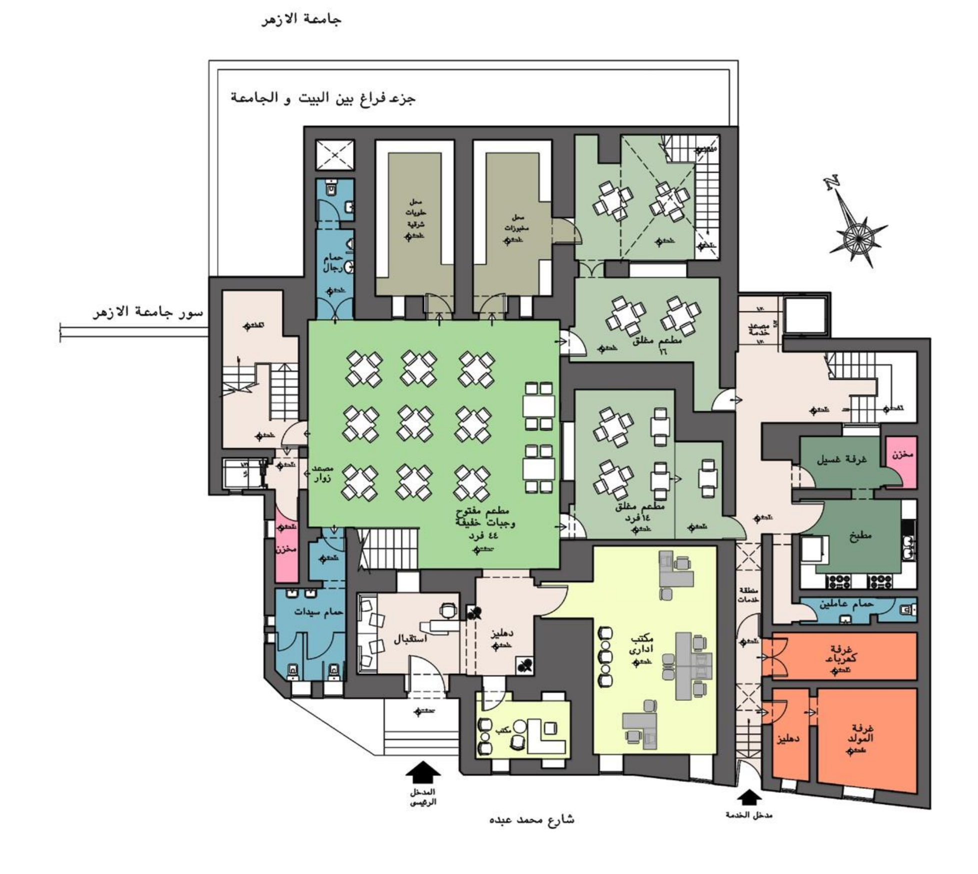
إن الأمر المنتقض في الحدوتة المعمارية هلامية التعليل ، كأي عمل فني إبداعي. أنت لا تستطيع أن تقول لكاتب أو لشاعر لماذا خرجت منك هذه الكلمات أو تلك المعاني ، وهو نفس الأمر في العمارة. لكن مزج هذا الخليط الإبداعي بكم من الحسابات يكتب لها الخلود.

مثال هذا الرائد والذي لايقل أهمية عن الهرم هو معبد أبوسمبل الذي تتعامد الشمس فيه على وجه رمسيس الثاني في يوم عيد ميلاده ، ومن عجائب القدر أنه لما غرق المعبد بعد بناء السد العالي ، واضطرت منظمة اليونسكو إلى رفع المبنى على تبة عالية ، حدث تأخير يوم في تعامد الشمس.

أما عن الشكل البصلي للقبة فقد وجد في أكثر من عمل في عصر المماليك ، في مسجد الظاهر بيبرس وضريح السلطان قانصوة أبوسعيد ، وإن كان ليس بنفس النسب ، لكنه وجد. إلا أنه انتشر بكثرة في الهند "تاج محل" وروسيا " الكرميلن" وبالطبع إيران. وبشكل عام فقد كانت قبتنا قبة مميزة في التصميم ولفت الإنتباة

ومضاعفة الإرتفاع ، أما عن المساقط الأفقية والبدائل التي تم تقديمها ، فقد تم تقديم أربع اختيارات أختير منها مجمع المطاعم.

والحقيقة أن الذي حدد اختيار مجمع المطاعم هو دراسة الجدوى، فقد كان من ضمن الإقتراحات متحف إسلامي ومركز حضاري إسلامي ، وربما كانا الإقتراحين الآخرين أنسب للحفاظ على اللآثر ، لكن العائد المادي لمجمع المطاعم كان أفضل. لذا كان القرار في صالح مجمع المطاعم مع الإشتراط على المستأجر بالبعد عن الجدران ، وقد زرت شخصيا مطعما بتلك المواصفات في بيروت.



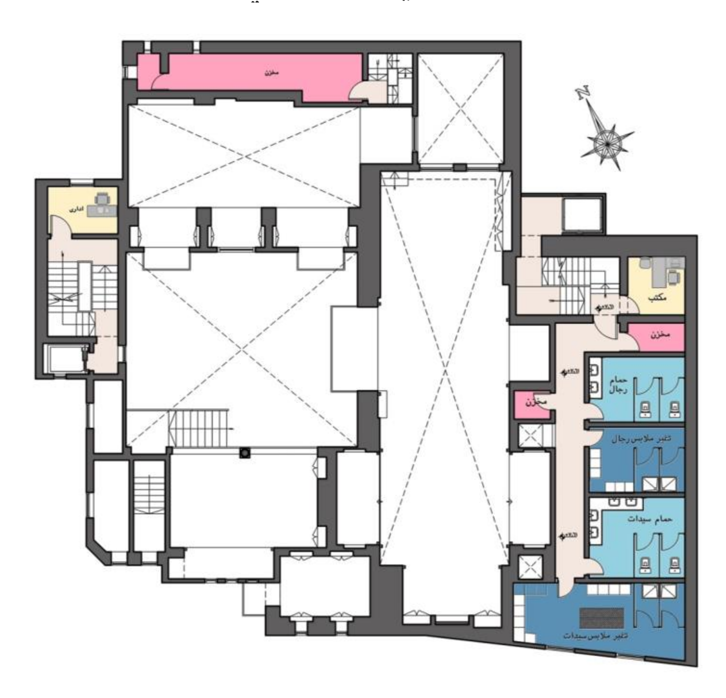


ولأن منطقة الازهر و الحسين مناطق مزدحمة بالزائرين و المارة و المتجولين و هي قريبة من سوق عملاق هو سوق "الغورية" و كذلك مسجد جامع هو مسجد الازهر الشريف فمطلوب جدا لخدمة المكان وجود مثل هذا النشاط .

المطاعم الموجودة داخل مباني أثرية أو حجرية موجودة في العديد من البلدان وهي بذلك تقع في منطقة متقدمة تخدم و تجذب العديد من الزوار و تعتبر مركز جذب لرواد مثل هذه الاماكن المتميزة . الحفاظ علي الاثر

بالابتعاد عن الجدران قدر المستطاع ووضع الطاولات لمسافات كافية أمر مهم للغاية و هي مهمة المشغل الذي يدير المكان . (المستأجر)

المشروع يحتوي بشكل عام على عدد متنوع من المطاعم من حيث نوعية الطعام التي تقدمها المطاعم و من حيث المكان و الجو المحيط بالزائرين اثناء تناول الطعام
فمنها المفتوح علي الصحن الداخلي و الذي يقدم وجبات خفيفة
و منها ما يقدم انواع مختلفة من الحلويات الشرقية و التي تتناسب مع الاجواء و الطابع المحيط بالمكان ، و اهمهم المطعمان الكائنان بالدور الاول و الذي يمميزهما الديكورات الاسلامية و الزخارف و العناصر الديكورية الاسلامية و كذلك الكافيتريا التي تطل علي الصحن . و اخيرا مقهي خاتون المميز و الذي يعتبر علامة مميزة للمكان حيث سيقوم الزائر بالتمتع بإطلالة مميزة لمآذن القاهرة التاريخية من اعلي ادوار القبة الزجاجية .





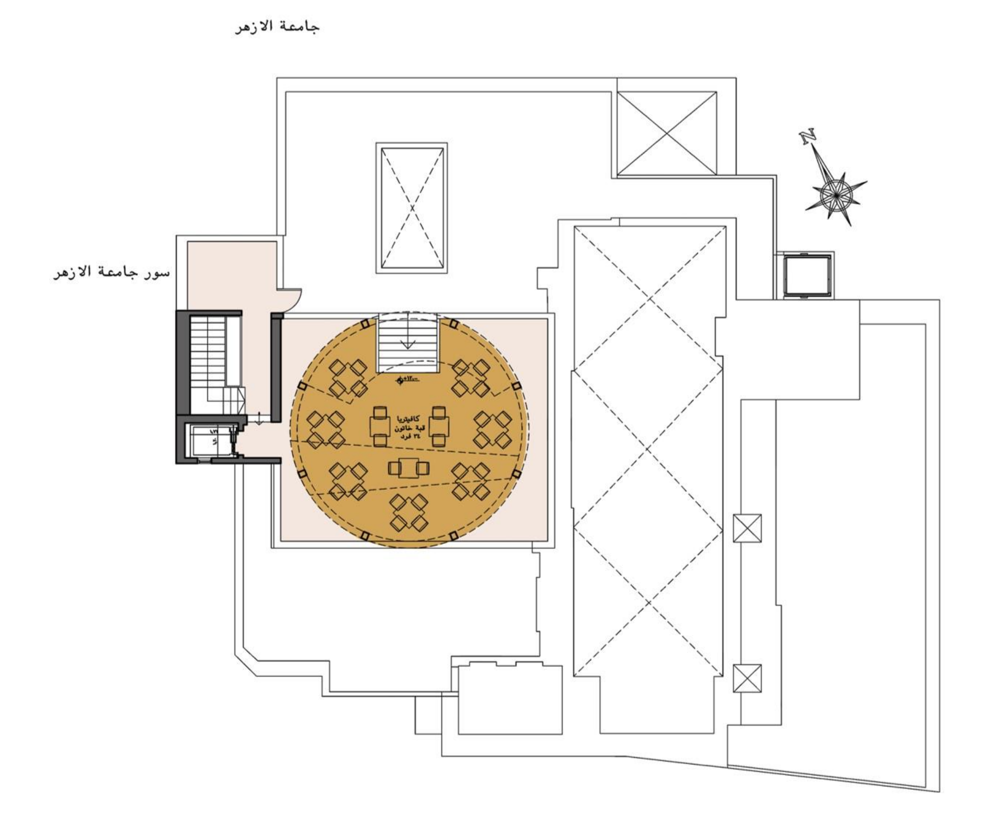
الطابق الأرضي ويحتوي على بهو المدخل الرئيسي للزوار ، وكونتر استقبال ، و غرفة للامن ، ومحلات لبيع الحلويات الشرقية و التي تتماشي مع طابع المكان.

كما يحتوي على مطعم مفتوح بصحن المنزل يسع حوالي 44 شخص ، ومطعم مغلق يسع 20 شخص و يمكن توظيفه كمكان منفصل للمناسبات الصغيرة مثل أعياد الميلاد ، وكذلك مطعم اخر صغير ما بين مغلق و مفتوح يسع 22 فرد

بالإضافة إلى حمامات للجنسين ، ومطبخ له مدخل منفصل يعزله عن مدخل الزوار مطعم الرئيسي، ومنطقة خدمية بها غرفة غسيل، وغرفتان للكهرباء (مولد ولوحات)

أما الطابق الأول فالطابق بأكمله مقسم إلى مطعمين ، واحد بالقاعة الشتوية والملحق الخاص بها (سعة 72 فرد) ، وآخر بالقاعة الصيفية (سعة 32فرد) ، هذا بالإضافة إلى كافية مفتوح على الصحن سعة 12فرد.

وفي طابق الميزانين تم استغلال الارتفاع الكبير للقاعات و تصميم دور ميزانين داخلي اعلي المناطق الخدمية الخلفية الملحقة بكل قاعة و تم تخصيصه لدور للعاملين و الخدمة كالاتي :
اماكن اتغيير الملابس للعاملين من الجنسين ، وحمامات مخصصة للعاملين ، بالاضافة الي كافيتريا خاصة للعاملين ومخزن كبير و عدد مكتبين للادارة .



الطابق الثاني والأخير يوجد به غرفة الاميرات و غرفة الوصيفات و التي بهما كافيتريا مغلقة يصل بهما عدد الزوار الي حوالي 20 فرد..كذلك وجود الحمامات العامة التي تخدم الطابقين (الثاني و الثالث) , بالاضافة الي كافيتريا مفتوحة علي السطح (32فرد)
وفي النهاية سلم بارتفاع حوالي متر، كبداية الاتصال بمقهي خاتون (القبة الزجاجية) ومنطقة للخدمات (مطبخ + غرفة غسيل + مخازن)

مقهي خاتون

هو مقهي الهدف منه الاستمتاع برؤية مآذن القاهرة من خلال مستويين داخل قبة زجاجية شفافة خفيفة الوزن ، هذا المقهي يتسع لعدد 50 زائر وهو على إرتفاع 1 متر عن سطح بلاطة الدور الثاني.
والمقاهي تدر في مصر ربحاً أفضل من المطاعم ، ليس هذا كلاماً مرسلاً ولكنه كلام دراسة الجدوي التي قام بها المكتب من خلال متخصصين في هذا المجال.
ونحن بتصميمنا هذا لانخدم السياحة فقط ولا الإقتصاد وحسب ولا المجتمع في تلبية احتاجاته ولكننا نخدم العمارة من خلال علامة معمارية تقوي منزل خاتون وتجعله مزارا أكثر إرتياداً من ذي قبل.

الخاتمة

هذه تجربة في التعامل مع آثر إسلامي ، أعادة ترميمه وتغيير وظيفته حتى يدر ربحا ودخلا للبلد ، أوكما كان يقال في الإجتماعات "يصرف على نفسه".
إن مصر مليئه بمثل هذه المباني ، ولقد صممت ثلاث مشاريع آخر لصالح مصر للإستشارات هم وكالة بازرعة وقصر السكاكيني ومركز شرطة عثماني بمدينة القصير.
لكل مشروع من تلك المشاريع قصة أو حدوتة، ولكننا بصدد زينب خاتون ، وحتى كتابة هذه الكلمات لم يكن المشروع قد تم إنشاءه لكني علمت من المكتب أنه طرح Tender للمقاولين أي أنه على أبواب التنفيذ.
أشكر الله العلي القدير أن منحني هذه الفرصة ووفقني لتصميم معلم أو التعامل مع معلم من معالم العمارة الإسلامية. كما أرجو أن أكون قد أضفت فكراً جديداً في التعامل مع الآثار في بلدنا الحبيب.

<u>وبقيت لي كلمة</u>

أدبي هندسة ، كلمة سمعتها من أستاذ التربة والأساسات في الجامعة التي أدرس بها ، كان يصف بهذه الكلمة قسم عمارة. وفي الحقيقة أنا أعطيه الحق فمهندسي العمارة في بلدنا يتعاملون معها على أنها رسم والرسم ليس فيه أخطاء ، حتى من يدرسون العمارة ليس لهم فكر مغاير عن فكر السوق.
والذي هو صاحب فكر منهم ينقل من المجلات المعمارية. وأنا أقول إن العمل المعماري الذي يكتب له الخلود لابد أن تغمس أحد جناحيه في الحسابات والعلوم وليس رسم أو فن فقط.

ولست في حاجة إلى دليل ، يكفي أن نعلم أن زها حديد رحمها الله كانت خريجة كلية العلوم قسم رياضيات من الجامعة الأمريكية ببيروت ، قبل أن تدرس العمارة .

كذلك سانتياجو كالاترافا درس الهندسة المدنية بعد أن درس الهندسة المعمارية. وبهذا نعلم أن تلك العقول التي أخرجت لنا أعمالا معمارية مميزة كانت لها عقول علمية مرتبة.

المبدع مبدع في كل شيئ ، والغير مبدع لا يسعفه شيئ .

وبإعتباري أدرس علوم ميكانيكا لطلاب الهندسة المعمارية من ضمن طلابي وأدرس مشروع التخرج أيضا بقسم العمارة فإنني أدعو المسئولين عن مناهج العمارة إلى بعث الروح بها وتغيرها من جذورها حتى نخرج جيلا يصمم لنا تعامد الشمس على غرفة نومه كما هو في عيد ميلاده أو يصمم لنا مسكنا دون إستخدام للأسمنت أو أي مادة لاصقة .

إن أقسام العمارة في بلدنا الحبيب مليئة بطلاب هربوا من الأقسام الأخرى لضعفهم الشديد في الرياضيات والفيزياء والاستاتيكا والديناميكا ، هذا فضلا عن الديناميكا الحرارية والنقل الحراري. هل هؤلاء الطلاب يأتي منهم إبداعاً ، هل ينتظر منهم أن يكونوا خلفاء لفوستر وروجرز ورينزو بيانو. أترك للقارئ الكريم الإجابة على هذا السؤال. والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

الكاتب

فهرس

المراجع

- المقريزي : المواعظ والآثار بذكر الخطط والآثار
- ابن خالدون : المقدمة
- سعيد عاشور : المجتمع المصري
- ابن إياس : بدائع الزهور
- تحقيق الدكتور حسين نصار : النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة
- قاسم عبده قاسم : دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي- عصر السلاطين
- جومار : وصف مدينة القاهرة

هذا الكتاب

محاولة جادة في تطوير العمارة الإسلامية Islamic-Postmodern
وهي محاولة مثيرة للجدل بين مؤيد ومعارض ، وأيا كان عددهما
أكثر فهي نبذ للتقليد وإنعاش لأفكار ربما كانت محبوسة تحت لافتة
" إن هذا أثر" . فالحياة تبقى طالما نحن نفكر ، فإذا ما انقطعنا عن
التفكير بدأنا نشيخ من أصابع أقدامنا.

